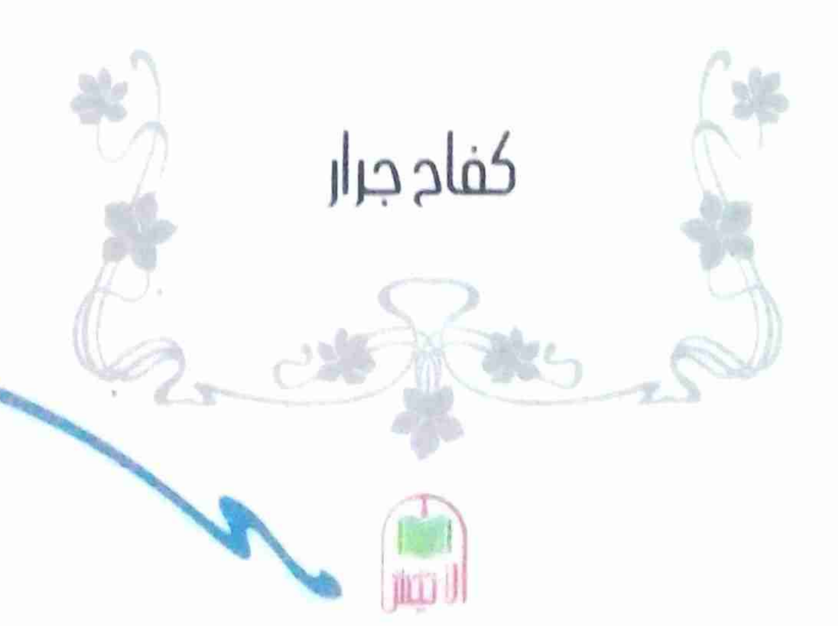
روايات تاريخ الجزائر



الملك صيفاقس

السيف الحر

كفاح جرار



رواية

روايات تاريخ الجزائر

كفاح جرار

الملك صيفاقس

السيف الحر

الطبعة الأولى

منشورات الأنيس
الجزائر

منشورات الأنيس

للنشر والتوزيع

تعاونية العلم رقم 17 جنان عشابو

دالي ابراهيم – الجزائر العاصمة

هاتف: 58 02 29 023

فكس: 57 02 29 023

المحمول: 84 08 57 0661

elaniseditions@hotmail.fr

مقدمة

يختلف الناس في طباعهم وأهوائهم ورغباتهم، ويختلفون أقل في توجهاتهم وأفكارهم، لأنهم ساعتها يبحثون عن التكتل والتجمع، فيسعون لإلغاء تميزهم الذاتي لحساب تمايزهم الجماعي، ويصبح اختلافهم أقل بكثير عندما يتعلق الأمر بالتاريخ، الذي هو سجل حياتهم الجماعية، كقوم وعشيرة ووطن، ومن هنا تنبع المتعة في دراسة التاريخ والبحث فيه، إنها السيرة الحية لأحداث اتفقوا عليها، ساهموا جميعا في صناعتها وبلورتها.

ولكن

ليس كل البحث التاريخي له متعته، وليست كل القراءات التاريخية شيقة وتخلب اللب، ما يعني أننا بحاجة إلى أسلوب أكثر إغراء وجدوى لتقديم الأحداث التاريخية بشكل مسل وممرض فيه من المتعة والفائدة، ما يغني عن قراءة التاريخ السردي المليء بالتواريخ والأحداث والأسباب والمسببات والنتائج، فهذه قضايا قد تهم الباحث والدارس

المتخصص، لكن القـارئ العـادي ينفر من هـذه القراءات المملة ويتجه نحو المتعة والإثـارة، لـذلك وجدنا من المفيد والضـروري تدعيم المكتبة الأدبية والتاريخيـة بسلسـلة قصصـية تتنـاول أهـم الشخصـيات التـي تركـت بصماتها واضـحة على مسيرتنا الوطنية التاريخية، ومن هذا البـاب والمنطلق كانت سلسلتنا هذه "روايات تاريخ الجزائر" التـي أردنـا منهـا تحقيق وتعميم متعـة القـراءة وفـائدة المطالعة، بقراءة تاريخيـة جديـدة، تتمثـل في تقـديم الحدث التاريخي في قالب قصصي ممتع وشيق، وهي مقسمة إلى أربعة أجزاء، بدأناها بالتـاريخ القـديم، ثم التاريخ الإسلامي، فالتـاريخ الحـديث وبعـده التاريخ المعاصر.

وما بين أيدينا اليوم، هو بعض تأريخ قصصـي للجزء الخاص بتاريخنـا الأمـازيغي، وقـد رأينـا أن تكـون بدايتـه سـيرة الملـك شوشـناق، والملكـين صـيفاقس وماسينيسـا، يوغرطـة وتاكفاريـنـاس ولغاية الملكة الكاهنة وتنهينان.

تمهيد

بعد مغامرة هانيبعل قائدقرطاجنة لغزو روما واحتلالها، وصل الرومان إلى قناعة مفادها أن أفضل وسيلة، وأنجع طريقة للتخلص من الأعداء، تكمن في نقل الحرب إلى ديارهم، وتلك كانت استراتيجية قائد الجيوش الرومانية سيبيون إيمليانوس الملقب بالإفريقي الذي وضع تفاصيلها ردا على من يفكر مستقبلا أن يسير على خطى هانيبعل القرطاجي.

وإذن وصلت القوات الرومانية إلى سواحل إفريقيا، فانضمت إليها قوة محلية نوميدية حليفة، كانت تحت زعامة الملك ماسينيسا، الذي وبفضل مساعدته، مكن الرومان من هزيمة قرطاجنة والانتصار على أعظم قادة عصره العسكريين، في معركة فاصلة هي معركة زاما سنة 202 ق.م.

ولكن قبل ذلك بسنوات وعقود، كانت العلاقة بين ممالك شمال إفريقيا الأمازيغية وقرطاجنة الفينيقية، قد توطدت وتمتنت بشكل سلمي، وخاصة أن الأمازيغ تعلموا من الكنعانيين أساليب في الزراعة والصناعة

والتجارة البحرية وغيرها، وكان التبادل والانصهار الثقافي بينهم عظيما، ولم يذكر لنا التاريخ عن حرب وقعت بين هؤلاء، وإنما اشتعل فتيل الفتنة فيهم يوم دست روما أنفها بينهم.

لم تتسم علاقة البربر بفينيقيي قرطاجة، بالتصادم والجفاء، كما سيكون عليه الحال في عهد الرومان والوندال والبيزنطيين، فقد تفاعل سكان شمال إفريقيا مع الفينيقيين، واندمجوا معهم، لأنهم كانوا يشعرون أنهم من أصل واحد وتربطهم أكثر من رابطة، لذا تحالفوا معهم ضد روما.

كان الملك صيفاقس أول من فكر في تأسيس وإقامة دولة أمازيغية كبرى تمتد من موريتانيا الطنجية ولغاية حدود قرطاج، تستطيع أن تقف في وجه الأطماع الرومانية، ثم تبعه في نفس التفكير ماسينيسا الذي خيب طموحات صيفاقس السياسية والعسكرية، ساعة أدخله في حروب استنزافية أدت إلى قتل صيفاقس في العاصمة الرومانية غدرا وخيانة.

ثم حمل ماسينيسا حلم الوحدة الأمازيغية، لكنه كان قاصرا عن فهم أطماع روما الحقيقية التي وقف معها وساندها، فعمل هؤلاء على عرقلة طموحاته ومشاريعه، ولم يطل به العمر كثيرا بعدها، فقسمت روما تركته بين أبنائه الثلاثة، وذلك حرصا على قتل حلم الوحدة، أو خشية منها على انتقال الحلم من جديد.

صيفاقس في سيغا

تمتد المسافة من القصر الملكي المسمى الكورديال إلى دار الحكومة الواقعة على الجانب الأيمن لنهر سيغا، نزولا على طريق معبدة بالحجر البازلتي، لنحو ستة كيلومترات، وهي مسافة اعتاد أن يقطعها الأمير الشاب صيفاقس بسرعة قياسية لعدة مرات يوميا، وهو الفارس الذي تعود أن يقضي معظم أوقاته على ظهر حصانه، أو بين ألواح الطين والفخار في مكتبة القصر.

أما اليوم فإنه بالكاد يستريح، وهو يتنقل مسرعا بين قصر والده الملك، ودار الحكومة حيث يجتمع الوزراء وقادة الجند، ولم يكن يثق بأحد ينوب عنه للقيام بهذه المهمة، فالأمر أخطر وأهم بكثير من الاعتماد على المساعدين والمستشارين، لا سيما بعد وصول القائد الروماني غنايوس سيبيو إلى مدينة سيغا حاملا رسالة من مجلس الشيوخ الروماني إلى الملك يفاو.

كان نهر سيغا "تافنة" يجري من الجنوب الغربي لنوميديا متجها بشكل مائل نحو الشمال البحري، قاطعا مساحات زراعية غاية في الخصوبة، من بساتين القمح

والشعير والبقوليات، وأشجار الفاكهة الصيفية المختلفة، وكذا الزيتون والحمضيات، ويصب شمالا في البحر المتوسط قبالة جزيرة أكرا "رشقون"، وقد شيدت على جانبيه مدينة تحمل اسمه، هي مزيج من الطراز المحلي والإغريقي مع بعض البناء الروماني، كانت سيغا عاصمة مملكة نوميديا الغربية المازيسيلية، ويقع معظم أجزاء المدينة على الشطر الغربي من النهر، وهي تمتاز بشوارعها الحجرية الأنيقة النظيفة، التي تزينها وتحف بها أشجار الحور والدردار، ويكثر فيها بشكل ملفت للانتباه أشجار الأسكنديا "المشماش" ذات الثمار البرتقالية طيبة المذاق، أما مساكنها فشيد معظمها من الحجارة الصفراء، وكان يربط بين شطري المدينة جسر حجري مدعم بالخشب، يؤدي بدوره إلى البحر، حيث ميناء المدينة الصخري المزين بالمشاعل ليلا، والمليء بسفن التجارة والصيد، ومن مختلف جنسيات شعوب البحر، يغلب على الميناء الطابع الفينيقي، حيث كانت السفن القادمة من قرطاجنة تتوقف فيه أثناء طريقها إلى هسبانيا، أما مدينة سيغا فهي

تتوسط إقليمي قرطينة ورسادية، وهران وتلمسان الحاليين، وهي عامرة بالحوانيت والدكاكين والخانات.

تميزت المدينة بأسوارها الحجرية المتقنة البناء، والتي تحيط بها أشجار الزيتون المعمرة، وهي تمتد من نهر الشلف شرقا ولغاية نهر ملوية غربا، تشتمل الأرض ما بين النهرين على مساحات زراعية خصبة جدا، ذات مدن عامرة وبلدات جبلية جميلة، وتبدأ مملكة نوميديا الشرقية من نهر الشلف ولغاية حدود قرطاج.

دخل الأمير الباب الرئيسي لدار الحكومة الواقعة على تلة صغيرة قبالة أحد أحياء المدينة الراقية، لاحظ غياب معظم الجنود المكلفين بحراستها، توقف قليلا تحت شجرة كاليتوس ضخمة تحاذي تمثالا للهلال أيور، مر من أمامه أحد الضباط وكان يسير بعجلة، فانحنى له باحترام، فسأله صيفاقس عن سر تغيب معظم الجنود، فأخبره أنهم يتأهبون للانسحاب من المدينة، فانطلق نحو الباب الداخلي، سار في الردهة الطويلة ذات الأرضية الحجرية اللامعة، فأحدثت خطواته صوتا رتيبا يشبه نقر المياه على وعاء فارغ، وفي نهاية الرواق

وجد الوزير العجوز ماتوس يحمل بين يديه لوح مكتوب عليه باللغة البونية، وهي لغة قرطاجنة التي كان يتحدثها الجميع، قال صيفاقس بعد أن ألقى التحية: عندما يأتي هؤلاء إلى ديارنا فذلك يعني أن الحرب ستندلع، أو اندلعت ويبحثون عن حليف ومنقذ.

كان ماتوس بن أنابو وزيرا طاعنا في السن، أسمر البشرة فيه هيبة ومخافة، لحيته طويلة يكسوها الشيب، وقد ميز نفسه عن أبناء جيله بلباسه القطني الأبيض، والرباط الأحمر الذي يلفه على رأسه، كان زاهدا مستمتعا بشظف العيش وخشونته، وهو صاحب خبرة وحكمة عظيمتين، ولا غنى عنه لأهل القصر، فهو بمثابة العمود الفقري الذي يحتاجه الجميع، سواء في إدارة شؤون الدولة، أو في القضايا الاجتماعية والقبلية، قال ماتوس وهو يمسد ويفتل شاربه الكث: كل ما يأتي من وراء البحر لا خير يرتجى منه، وكما قلت أيها الأمير، لقد أرسلوا إلينا أحد كبار قادتهم، فقد تذكرونا للسيف فقط.

عقب صيفاقس: يا لروما المخادعة، ولكن قرطاجنة لا تقل عنهم بأسا وطمعا.

قال ماتوس: عليك أن تختار موقعك بين الذئب المخادع الذي يفترس كل القطيع، أو الكلب العنيد الذي يكره المنافسين.

قال صيفاقس مستفهما: أنت مع القرطاجيين إذن؟.

قال وهو يرسل سيلا من السعال المصطنع: بل أنا مع كل ما يحمينا ويجنبنا شرور غيرنا، أخبرني أيها الأمير الشاب، هل تحب الشر لنفسك أو لقومك؟ بالتأكيد لا، ومع ذلك عليك أن تختار.

تناول صيفاقس اللوح من يد الوزير العجوز، وانطلق دون أن يتفوه بحرف واحد، فتبعه الوزير بابتسامة بريئة، كشفت عن أسنان سليمة تشبه أسنان الأطفال، كان الفارس الأمير واثقا تمام الثقة أن الشيخ يبتسم من ورائه، لأنه لم يجد الإجابة التي تقنعه وترضي ضميره، فابتسم هو الآخر لهذا الخاطر، ولو قيد الأمر له لاختار قرطاجة، لكن بعد الدماء التي سالت لا مفر من الوقوف مع الرومان الذين يكرههم، وهو يمني نفسه بعدها برؤية نوميديا أمازيغية مختلطة يعيش فيها الجميع

بخير وسلام، بعيدا عن حرائق الجميع التي كما قال الوزير لا خير فيها يرتجى.

انطلق مسرعا نحو قصر والده الملك، حيث الاجتماع السري مع المبعوث الروماني القمي صاحب الوجه الأحمر، كان الجواد يسير كالجندي جيد التدريب، فأمتعه صوت نقر حوافر الحصان على الطريق الحجرية الرمادية، كانت الضربات رتيبة وسريعة ذات جرس موسيقي، ترسل صدى غريبا يتماوج فوق سطح ماء النهر الذي كان على يسار الأمير، ما يوحي بأحداث عظيمة على وشك الانفجار، اهتز جسم الفارس واقشعر من نسمة باردة اخترقت سترته الجلدية، فتلفت حواليه مثل ثري يحمل كنزا من المال يعتقد أن كل الأعين تترصد به لتتصيده، كان متوجسا يعتقد أن أحدا يراقبه ويتلاعب بمشاعره، ونسي أن الربيع جاء سريعا حاملا معه بقايا برودة الجبال، والحقيقة التي لا يمكنه نكرانها أنه ارتعش من فكرة الحرب وضراوتها، ليس خوفا وجبنا يكمنان فيه، وإنما كانت لديه نية صافية أن يسعى نحو مملكة الشرق ويرجو ملكها أن يوافق على إقامة وحدة شاملة معهم، فبإمكانهم

... عتها إثبات وجودهم ومنع أي طماع من التعدي عليهم واستعمارهم، كما أن الأخبار القادمة من هسبانيا تؤكد أن الحرب المستعرة هناك بين هانيبعل والرومان لابد أن تصلهم، إذ لا يفصلهم عنها غير ذلك المضيق البحري، وكان صيفاقس مصيبا في ظنونه فقد اشتعلت المعارك ضارية وقاسية بين قوات القائد القرطاجي هانيبعل والقائد الروماني ماركوس روفوس، وهو اليوم يخشى أن تمتد إلى هذه المناطق العزيزة على نفسه.

فور وصوله إلى بوابة القصر، شاهد القائد الروماني غنايوس يغادر مسرعا، فالتقى الرجلان عند المدخل، فانحنى القائد الروماني محييا وبادله صيفاقس التحية، وقال الروماني: قدر لنا أن نقاتل سويا عدوا لا يفهم إلا القوة، ولا يعرف الوفاء.

همس بخجل وهو لا يدري ما يخرج من فمه: أجل نعم، جميعنا نحب الوفاء، هي جملة قالها ولا تحمل أي معنى، لكنه وجد نفسه مرغما على مجاملة صاحب الخدود الحمراء المنتفخة.

هكذا إذن لقد اتفقوا، همس لنفسه. إن والدي لا يمتلك مناعة أمام روما. ولا يعنيني أن أكون مثله وأتبع خطاه. ولكن ألم يصبر حتى أعود؟.

دخل القصر فوجد والده يعطي تعليمات إلى قادة الجند، تحضيرا للمرحلة المقبلة. وسمعه يقول: كونوا جميعا على أهبة الاستعداد. فناوله والده الكتاب الذي جاء به من الوزير، وقال: هل اتفقتما على القتال؟.

قال الملك وهو يدقق النظر في الرسالة: وهل ترى أمرا آخر، إما أن تقف مع قرطاجة أو مع روما، وإلا سوف يسحقونك ويمسحون آثارك.

فأين تقف أيها الأمير، قال ذلك بصوت مرتفع خال من الود، المهم عندي ألا تقل لي إنك تقف في المنتصف، فلست أحب لك تلك الأمكنة الوعرة، ثم إنك ما زلت تحلم والناس اليوم يعملون، ويؤسسون الأحلام.

طفق صيفاقس يضحك لتعقيبات والده التي لم تكن في مكانها، وقال مهدئا: بل أنا حيث تريدني أن أكون يا جلالة الملك.

علت وجه الملك يفاو ابتسامة رضى وهو يقول: الآن أنت ولدي وهكذا أريدك.

ومع ذلك، فقد انتزع من والده وعدا أن يعطيه فرصة أخيرة، ليحقق ما يراه صوابا، وكان الملك يتمنى في قرارة نفسه أن يكون ابنه مصيبا في اعتقاده، وقال: لن نخسر شيئا، مع أني أتمنى ألا تريق ماء وجهك بدون سبب، لكن حاول وأرجو لك النجاح، مع أني أرى عبث ما تفكر به.

قال: لن نخسر شيئا لو جربنا.

قال الملك: بل سنخسر بعض سمعتنا وهيبتنا، وأعلم أنك لا توافقني الرأي، ولكن طالما وقف إلى جانبك وزيرنا ماتوس فسوف لن أقول لكما لا.

مضت الأيام بعد ذلك ثقيلة رتيبة، الجميع يتوجسون الشر قبل وقوعه، وهي حالة أشد من الشر نفسه، كان خلالها صيفاقس يضع خطته للوصول إلى سيرتا ومنها إلى قرطاجنة دون أن يشعر به أحد، وكان يدرك أن مهمته تبدو شبه مستحيلة، لكنه أصر على القيام بها، وقد اعتقد أهل القصر أن أميرهم نسي أمر السفر وتجاهله، وأدرك أن

لا فائدة وجدوى منه، فليس بإمكانه أن يغير مجرى الأحداث، ومن يكون هذا الصيفاقس العبقري حتى يغير مصير قرطاجنة، على حد قول والده لوزيره الحكيم ماتوس، وقد أخذ بعدها يعاتبه لأنه شجع الأمير على مغامرة ستودي بحياته، وحمله كامل المسؤولية لأنه كما قال: حشوت رأسه بأفكار لا يمكن تحقيقها إلا في أحلام الشتاء الطويلة.

لم يقتنع الوزير بسيل الاتهامات التي صبها الملك يفاو على رأسه، ولم يشأ أن يرد عليه أو يبرر موقفه، واكتفى بالقول وهو يهز رأسه أسفا: سوف يدفع أحدنا ثمن ما سيجري لاحقا، ولو سألتني الرأي لأخبرتك.. قاطعه الملك قائلا: لم أسألك الرأي ولا أريد أن أعرف شيئا، وقد حسمت الأمر نحن مع روما، ولا مصلحة لنا مع سواها.

ساد الصمت قليلا، ثم قال الملك: ماذا كنت ستقول، أخبرني ما هو رأيك؟.

ابتسم الوزير العجوز، فقد أدرك حجم الحيرة التي تعصف في قلب الملك، تنحنح قليلا ثم قال: سوف

يفشل هانيبعل في حملته على روما، وسوف يطردونه من هسبانيا ويلاحقونه حتى بلادنا.

قال الملك مقاطعا: هوه هوه أيها العجوز، كنت أعلم أنك متعدد المواهب والمعارف وها أنا اليوم اكتشف أنك تعلم الغيب، متى هبط عليك هذا الإلهام الغيبي يا ماتوس؟.

تبا لك من عجوز أخرق وتبا لمن يستشيرك بعد ذلك.. ولكن تابع الملك الحائر قائلا: كيف توصلت إلى هذه النتائج يا ماتوس؟.

قال ماتوس: كل من يحارب بعيدا عن دياره يا مولاي، سوف تحيق به النوائب والمصائب، لقد جن القرطاجيون يوم ركبوا فيلتهم وانطلقوا بها نحو الشمال، خوفا من عدو يجهلونه اسمه روما، وأصاب السعار الرومان الذين يقال إنهم من سلالة ذئبة، فكشروا عن أنيابهم وهانحن نكتشف أنها أنياب سامة كأفاعي الصحراء، فأي مكان لنا بين هؤلاء المأخوذين بغرور قوتهم وسلطانهم، أو المتوجسين من خطر قد يقتل تجارتهم؟.

صمت ماتوس، ولم يكن يرجو أو ينتظر سماع كلمة ثناء عن رأيه، فإنه الوحيد الذي يقدم النصح والمشورة للملك حبا له برغبة وصدق، وليس تزلفا وتملقا، ولأنه كذلك كانت عنده الجرأة لكي يخالف الملك ويسمعه رأيا لا يحبه، لكنه فوجئ بالملك هذه المرة يقول ببطء وحزن: حقا أي مكان لنا بين روماني متجبر وقرطاجي جائر، سوف يجلبون لنا البلاء.

كانت رياح الحرب ورائحة الموت التي ترافقت مع الحرب البونيقية الثانية، تقترب من شمال إفريقية تاركة هسبانيا وجمهورية روما وبلاد الغال من ورائها في حرائق ودمار عظيمين، لقد قرر هانيبعل أن يغامر بوطنه وأوطان الآخرين، وهم اليوم يحصدون ثمن جنونهم، لكنه لو استطاع أن يحتل روما ويرغم شيوخها على حمل الراية البيضاء، فسيكونون ساعتها من أسعد أهل الأرض، وأشدهم غبطة، فلا أحد يحب روما، ولا أحد يتمنى لها الخير.

اشتدت الأزمة ما بين سنوات 220 و 218 ق.م، حيث كانت المعارك تدور بين الرومان والقرطاجيين،

يكسب هؤلاء معركة برية ويخسرون بالمقابل معركة بحرية، وأما همزة الوصل فكانت نوميديا الغربية التي قاد معاركها صيفاقس الأمير والملك من بعد.

كان معظم وأهم رجالات قرطاجنة قد غادروها إلى هسبانيا، حيث المعارك التي طارت فيها آلاف الرؤوس، ودمرت فيها بلدات وقرى بأسرها، حتى أصبح هانيبعل بن حملقار برقا من ألد أعداء روما، وصار بحق من أسوأ كوابيسها، إنه شبحها المخيف الذي باتوا ينامون على ذكر اسمه ويصبحون عليه، وكان معه أخويه صدربعل وماجو، ولم يبق في قرطاجنة سوى صدربعل جيسكو أحد أبناء عمومة هانيبعل، أما صيفاقس فقد عقد العزم وحسم الرأي على تحييد نوميديا الشرقية وإن لم ينجح في إقناع ملكها غايا، فسوف يتوجه نحو قرطاجنة وفي نيته أن يسعى للصلح بين المتحاربين، وعلى هذا الرأي استقرت عزيمته.

إنه بسبب علمه ومعرفته وثقافته الواسعة، من الذين يؤمنون ويعتقدون أن الغايات النبيلة الكبرى لا تتحقق إلا بالهمة والعزيمة النظيفة، ولما سأله والده الملك يفاو

ومستشاره العجوز عن تلك الطائفة، قال: إن لم ينتصر الرجل من تحقيق طموحاته النبيلة، فعلى الأقل عليه حينها أن يكبح وضاعته ونواياه الشريرة، ليس من الشرف أيها السادة أن تحافظ على يديك نظيفتين، وليس من العدل أبدا أن يقتل الرجال لكي ينعم أحدهم بعدها بالنصر، فيتفاخر منتفخا، أنه قدم من أجل حكمه أكبر عدد من الرؤوس، وإن اقتضى الأمر أن يقتل هانيبعل أو غايا أو حتى هو الأمير صيفاقس من أجل إيقاف كل هذا القتال فليكن، فإنه على استعداد لتنفيذ ذلك بيده، وعلى هذا استقرت عزيمته.

الطريق إلى قرطاجنة

استيقظ صيفاقس بن يفاو من النوم مبكرا، رغم أنه لم ينم حقا، فقد أمضى ليلته يتقلب في فراشه، كما تتقلب السمكة في المقلاة، فعليه أن يقوم بمهمة خاصة جدا وخطيرة جدا في نفس الوقت، لذلك لم يخبر أحدا بما اعتزم فعله، وهو الأمير الذي تجاوز ربع قرن من العمر، ولديه من الحكمة والعقل ما يعادل منطق الشيوخ الحكماء، كما قضى معظم وقته بين الفروسية ومقاعد العلم، لقد كان يؤمن أن قوة الساعد وقوة العقل متلازمتان لا تنفصلان، وخاصة لمن أراد أن يبني دولة منيعة حصينة، وزاد من عناده وإصراره الأحلام التي كانت تراوده دوما، بعد الذي كان يراه من ضعف وانقسام بين أبناء قومه، الذين توزعوا في ولاءاتهم، ولم يكن هو شخصيا قد وجد ضالته بعد، لكنه كان واثقا أن كل شيء يسير على سكة خاطئة، وليس على الطريق الصحيح، وعندما اقترح على والده أن يجري توحيد نوميديا تحت راية واحدة، وجد منه الصد والتعنيف، رغم أن أبيه كان ملكا ضعيفا ومسالما، لكنه لم يثق يوما

بنوايا جاره ملك نوميديا الشرقية، وهو كما كان يصفه دوما، يبلع كل شيء كالمستنقعات التي تفصل بين مملكتيهما، رجل لا يعرف الشبع ولا يكف عن الطمع.

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة صدق ظن الملك المازيسيلي يفاو، وتلك من الحالات النادرة التي يفيد فيها الضعف والجبن صاحبه، وكم انتقده شقيقه يدر على سلميته التي بلغت حد الضعف، لكنه في المقابل جنّب بلاده ويلات حروب لا مبرر لها، فنأى بها عن روما وأطماعها وقرطاجنة ومغامرات قادتها، لكن ذلك الزمن انتهى الآن ومضى إلى غير رجعة، وعليهم اليوم أن يحسموا أمرهم، ويقفوا حيث يجب أن يكونوا، وهاهو الليلة يتحاور مع ابنه في هذا الخصوص، كان الملك يلبس جبة قطنية زرقاء فاتحة، تصل إلى ما تحت ركبتيه، ويضع فوقها قميصا مفتوحا من الجلد مقصوص الأكمام، ويضع على خصره زنارا جلديا مطعما بالذهب، وكان ينتعل صندلا خفيفا بني اللون، اعتاد على لبسه في القصر، وكانت قاعة حكمه بسيطة متواضعة، فقد عرف عنه ولعه بالبساطة، بالإضافة إلى

كرسي الملك الخشبي المرصع بالنحاس والفضة، كان يعلوه رأس نسر عظيم، وكانت المشاعل تزين أركان القاعة، عاكسة لونا أصفر باهت على الحيطان والأرضية.

ظهر الملك يفاو خائفا ومضطربا، وكان الارتباك واضحا في حركات يديه، وقد كان يقوم ويجلس عن مقعده بحركات عصبية، ولم يخف ذلك على ابنه الأمير الشاب قوي الإرادة والشكيمة، الذي يعرف ما يريد وكيف يحقق إرادته، حتى أنه كاد يرجو والده أن يتخلى له عن الملك إشفاقا عليه من حالة التوتر والقلق.

قال الملك: هل تذكر يا ولدي كم أردتني أن أتحالف مع غايا الجشع، وأنت اليوم تسعى للتخلص منه، وإراحة الناس من شروره، ولست أدري بالضبط لم غيرت رأيك فيه، ربما كنت تمازحني ليس إلا.

صمت صيفاقس فقد وجد نفسه عاجزا عن الجدال في صدق حدس والده، لكنه قال: ومع ذلك فإني لا أثق في الرومان أبدا، إن هؤلاء لن يكفوا عن التحريض وزرع الفتنة والثارات بيننا حتى يتخلصوا منا جميعا، ثم

يحكمون قبضتهم علينا كقطعان البقر التي تجوب مراعيهم.

قال الملك يفاو: وهل تظن أن رعونة حكام قرطاجنة سوف تجلب لهم الخير، أو تأتي إلينا بالنعم؟ إنك يـ صيفقس المزهو بفتوتك وشبابك سوف تقف ذات يوم على قبر أبيك العجوز يفاو بن فيرميناس، فأرجو منك يومها يا ولدي أن تخبرني عن مصير قرطاجنة الغبية.

لو أنك تعلم لم أطلقت عليك اسم صيفاقس لكنت وقفت كالسيف احتراما وتقديرا لأبيك، لكنك مع ذلك تصر على أن تسمعني ما أكره من كلام، إنك المحروس يا ولدي، وهو يشير هنا إلى معنى اسم صيفاقس أي المحمي والمحروس، الذي تنبأت له العرافات بالقوة والحكمة والمجد، إني أنظر إليك فأرى نفسي ولكن على صورة أفضل، ابتسم الملك وهو يستفيض في شرح محاسن ولده التي يتمنى أن يراها في نفسه، أنت هكذا نسخة رائعة عن أبيك، لكن..أخذ يفكر بالكلمة المناسبة وهو يفتل شاربيه، ثم قال: نعم لكن ينقصك بعض الحكمة والصبر، ومع

ذلك أخبرني، لماذا تأنف عن وضع تاج كالذي يلبسه الإغريق أو الرومان، ثم إن ملابسك وحتى لحيتك المشذبة المهذبة الأنيقة لا تشبه لحاهم، إن لحيتك قرطاجية يا بني، أيها الرب الحبيب أطلس بماذا ابتليتني؟.

ابتسم صيفاقس وهو يقول: لقد ابتلاني بأنك أبي، وعلي أن أستمع إليك رغما عن أنفي وإلا ستتهمني بالعقوق والعصيان.

علت ضحكات الملك وهو يستمع إلى هرطقات ولده، فقام من مجلسه وتوجه إلى قاعة الطعام، ثم التفت إلى ابنه وقال: تعال شاركني بعض الطعام، لقد سئمت من وجوه الوزراء الكالحة.

كان صيفاقس معتدا بنفسه، مزهوا بها من غير غرور، يظن أنه حصّل من الفروسية والعلم ما يؤهله للاعتماد على نفسه، وسوس بلاد بحالها، لقد بات يعتقد أنه جاء الوقت ليخرج عن وصاية والده، ولا يحتاج لمن يتوسط له عند الآخرين، وربما كما كان يرى في نفسه، هو الأحق والأجدر بتحمل مسؤولياته، ولما سئم والده من التأثير عليه، تركه يتدبر أموره بنفسه، بعد أن قال له: ولكن عندما

تشعر أن السيف اقترب من رقبتك لا تتردد في طلب مساعدتي واللجوء إلي، ففي المحصلة ومهما يكن، فأنت ولدي الذي أعول عليه كثيرا.

تشاغل صيفاقس بتتبع أشكال بلاطات أرضية القصر. فأخذ يعدها ويتأملها، لقد أراد أن يشغل نفسه بأي شيء ينسيه نصائح والده المتكررة التي لا نهاية لها، فلما انتهى والده من الكلام، قال: أرجو ألا أصل إلى تلك المرحلة التي أعود فيها طالبا النجدة، قال ذلك وهو لا يقصد أو يتعمد الإساءة، لقد كانت علاقته بوالده حسنة، لكنه آثر التمرد والاستقلالية، ليس جحودا وعقوقا، وإنما لأنه يثق تماما بخياراته.

قال الملك الذي شعر بخيبة كبيرة من كلام ولده: لك مطلق الحرية في أن تصنع ما تراه مناسبا لك، ولكن كما أخبرتك لن أقول لك تحمل نتيجة خياراتك، بل أنت ولدي الوحيد الذي سيجلس يوما على كرسي الملك، ولو سألتني المشورة لقلت لك ابتعد عن قرطاجة ورجالها وما يأتي منهم، فلست أثق بهؤلاء القوم أبدا، سوف لن يأتينا منهم إلا السوء والشر.

قال صيفاقس، متأففا، وهو الذي ضاق صدره من نصائح والده التي لا تنتهي: وهل كنت ستقول مثل ذلك عن روما وشيوخها، أخبرني بم تختلف قرطاجنة عن روما؟.

قام الملك عن كرسيه، واقترب من ولده، ثم قال: وهل ترى أن الغرباء يشبهون الأقرباء يا بني، إنه من السهل عليك أن تتدبر أمرك مع الغرباء، فتطردهم وتتخلص منهم، لكن كيف يمكنك التخلص من الذي يجاورك ويقاسمك الهواء الذي تتنفسه؟.

تابع الملك وهو يراقب حركات ولده، ويرى تأثير كلامه عليه: هل تمكن منك عشق الرومانيات أو ما زلت مفتونا بقرطاج وبناتها؟ يقولون إن لديهم إماء فائقات الجمال، والحرائر فيهن يخلبن الألباب.

احمر وجه الأمير لملاحظة والده النسائية، فلم يشتهر صيفاقس كبقية شباب القصر بعلاقاته الغرامية، ولم يعرفوا عنه ملاحقته للنساء رغم كثرتهن وجمالهن الفائق، حتى أشاع حساده أنه مصاب بالعنة، ولما علم بما يقال من وراء ظهره، استشاط غضبا، وأقسم أن

يجامع ثلاث فتيات مرة واحدة، وكان ساعتها يصيح في ساحة القصر قائلا، سوف تعلمون من هو الضعيف العاجز، لست أنا من تسقطه امرأة أو تشبعه امرأة، ولكني أيها العجزة توقفت عن أكل لحم الإناث الحي منذ مدة، وسوف أعود إليه، فأرسلوا إلي لجنة تحكيم تراقبني، فتصنعت البنات الخجل والخشية، واختفين جميعا في أحضان أمهاتهن وهن يتمنين أن يكن من المحظوظات اللواتي يكتسبن هذا الشرف الملكي، ولكنه عندما فعلها، اختار أجمل جواري القصر وأكثرهن شراسة وشبقا، فصمتت الألسن بعدها، تاركة الميدان أمام الفتيات ليتصارعن عليه.. فأيهن التي ستفوز بقلبه.

لكنه لم يتزوج أيا منهن، وإنما كانت زوجته أجمل نساء زمانها، وهي التي تصارع على كسب رضاها الرجال فاختارت صيفاقس، ثم تاهت بعدها بين رجل تحبه ورجل يحبها.

كم هي صعبة ومأساوية هذه الحالة، يعشقها الجميع ويتمنونها، لكنها تعشق رجلا وتموت فيه حبا، ويعشقها

رجل ويموت فيها عشقا، وفي المحصلة تكون لمن يعشقها، ولا تكون في الحقيقة لأحد، وإنما هي ابنة أبيها.

ارتفع صوت صيفاقس وهو يقول: وأي شأن للنساء في حديثنا، لم حشرت الحسناوات في حوارنا يا أبي ؟.. وانتبه أنه تجاوز حدود الأدب واللياقة مع والده، فأمسك بيده وقبلها معتذرا عما بدر منه، فقال الوالد الملك: لا بأس عليك يا بني، لكني أشفق عليك من تهورك، وما زلت أنصحك أن تبعد عواطفك ومشاعرك عن قضايا المملكة الكبرى.

قال: لا تخش شيئا أيها الملك، فلست أخلط بين واجبي وقلبي، هذا إن لم تزل عندي أية رغبة في الحب، أو حتى أشعر أني أحمل قلبا يمكنه العشق مرة أخرى.

قال الملك: أنتم الشباب عندما تفتنون بامرأة لا ضير عندكم من حملها، والركض فيها كالحمير النشيطة، بل لا تمانعون حتى في تقبيل نعلها وقدمها، ساعتها لا تفكرون إلا في أمر واحد، أن تنالوا إربكم منها، تبا لأعضائكم التناسلية التي لا تكف عن الصراخ والعويل في رؤوسكم.

نظر صيفاقس إلى أبيه كأنه يراه لأول مرة، فلم يصدق ما يتفوه به هذا الرجل العجوز الذي يقولون عنه، إنه ضاجع نصف بنات المملكة أثناء شبابه المبكر، وهاهو الآن يزرع الفضيلة ويسعى لتسويقها على ولده الوحيد الذي شابه أباه في أشياء كثيرة إلا في عشق النساء.

أمعن الشاب النظر في والده، وهز رأسه كمن يقول له باحترام، إني أعرف تاريخك الأحمر كله، فارحمني من معاصيك، هز رأسه مرارا وهو يراقب انفراج أسارير والده، فأعجبته ابتسامته الصافية، وكان يقول في نفسه: لا أستغرب أن تعشقك جميع الأمازيغيات، الصغيرات والكبيرات وحتى المسنات، بل كان عليهن أن يعشقنك، وإلا لكن جميعا من نسل غبي، فاقدات للحس والذوق.

انصرف صيفاقس إلى غرفته وهو يرجو أن يخيّب فأل والده، فقد أصبح محط أنظار الجميع دون أن يسعى لذلك، مضى إلى جناحه الملكي وهو منشغل بحواره الأخير مع أبيه، كان عليه أن يثبت قدراته وإمكاناته، وإلا كيف له أن يدير أمور المملكة، بعد أن علم من

والدته الملكة أن والده يفكر في التنازل له عن العرش، إن تحقق ما يقال عن قرب انتقال الحرب الهانيبعلية إلى الشط الجنوبي من البحر.

كان يمشي مشغول الفكر والخاطر، شارد الذهن، لذلك فاته أن يراقب ما يجري حواليه من حركة، وخاصة من جانب الفتيات اللواتي كان الأمير فارس أحلامهن جميعا، وحدث أثناء سيره أن التقى أمام الردهة بالفتاة الدلوعة تامولت، وهي ابنة عمه من بعيد، كانت الفتاة الجميلة الطويلة ذات الشعر الباذنجاني الخلاب والعيون العسلية، تنام وتصحو على سيرته والحديث عنه، بل واخترعت القصص والروايات عن حبهما المزعوم، ومن حسن حظها أنه لم يسمع ما كانت ترويه من قصص وحكايات وهمية، وكانت بدورها تجهل أنه لو عرف بما تقول عنه، لشنقها على أقرب شجرة في حديقة القصر، تعمدت تامولت أن تصدم به، وما أن لمس كتفه كتفها حتى أطاح بها أرضا، أو أطاحت بنفسها وتعمدت السقوط منتظرة أن يهرع إليها ويحتضنها، لكنه لم ينظر إليها، إلا كما يتناول الصقر

أرنبا فزعا اختبأ خلف صخرة، ولم يكلف نفسه عناء مغازلتها، رغم أن صدرها البض احتك بكتفه العاري ولابد أنه شعر بحرارتها المرتفعة، لكنه لم يأبه لها، وكأنها ذبابة أو بعوضة لامسته وابتعدت، لقد كان عقله وكل تفكيره منشغلا بأشياء أكثر أهمية منها، فمن يختصر له المسافة التي تفصله عن هدفه، وهي مسافة بعيدة جدا وشاسعة، هي أبعد من الخط الفاصل بين غرب وشرق نوميديا برمتها، وفي الوقت نفسه ليس أقرب من تلك المسافة التي تجمع بين قلبين متحابين، الذين لا تفصلهما الجغرافيا مهما تباعدت أقطابها، كان الشاب العشريني يعشق امرأة قرطاجية، تعرف عليها أثناء رحلة بحرية قادته إلى مدينة أويا الليبية، فعرف على يديها وفي أحضانها معنى الحب، كانت بنفس عمره، لكنها صاحبة تجربة وخبرة تعادل النساء المسنات، ولم يستطع إلا أن يعشقها، فقد كان كل ما فيها جميلا عذبا ممتعا، راقه وأخذ بمجاميع قلبه، هي ابنة قرطاجنة الحمراء سليلة أليسا الفاتنة، وهو ابن مدينة سيغا، القريبة من حدود موريتانيا الطنجية، وتفصله عن قرطاج مملكة

نوميديا الشرقية، التي يحكمها الملك الماكر غايا، وهو والد نده وغريمه ماسين، فكيف يصل إلى قرطاجنة بهدوء وسلام، ويتحاشى الاصطدام بغريمه ابن السابعة عشر الباحث بدوره عن المجد والقوة، وسوف يتخاصمان بعدها على حب واحد، وكأنه لم يكن يكفيهما ما بينهما من خصومات عالقة، فجاء العشق المتحصن وراء تلك الأسوار العالية، ليزيد من فرقتهم ويؤجج نار العداوة بينهم.

اشترك صيفاقس الشاب المفعم بالقوة والحيوية مع والده يفاو بخصومتهما العنيدة لمازيليا ومن يحكمها، إنها عداوات تقليدية لا مبرر لها، ولا شرعية تدعمها، لقد كان والده ندا وخصما للملك العجوز غايا بن أمساكول بن أيليماس ، وقد ورث صيفاقس عنه هذه الخصومة والعداوة، وتلك عداوات لم يعرف أحد أسبابها الحقيقية.

حتى الملك يفاو بن فيرميناس نفسه لم يكن يعرف تماما سر هذه العداوة التي تبدو متأصلة تجاه نده غايا، وكانت المملكة المورية الطنجية هي الأخرى ندا آخر لهما معا، وعندما سأل صيفاقس والده عن أسباب العداوة

مع الملك غايا، أدخله في متاهة طويلة، لم يستوعب منه غير قوله: لقد قتلوا منا قديما، واعتدوا على نسائنا وأعراضنا، وهم يطمعون في ملكنا، ولا أعرف بالضبط متى كان ذلك، ولم يتمالك الشاب من الابتسام قائلا: حقا يا أبي لا تعرف متى تخاصمنا معهم؟.

قال الملك، الذي يكره السخرية، وهل تظنني أمازحك وإن كنت ولدي؟.

قال: ولكن يا أبي فلتذهب كل هذه العادوات إلى الجحيم، ولنفتح معهم صفحة بيضاء نقية.

قال: عندما أموت وتصبح ملكا، إفتح ما تشاء من الصفحات واصبغها بالألوان التي تحب.

وإذن فإنهم تعادوا وتخاصموا ولا يعرفون متى ولماذا، وتلك كانت من حماقاتهم وإحدى الأسباب العظيمة لضعفهم واستقواء الغرباء عليهم وخاصة الرومان.

اصطحب صيفاقس معه في تلك الفجرية الربيعية المنعشة، صديق طفولته وابن عمه اليتيم سيفاو بن يدر، وكان هذا في نفس عمره، ومن حسن حظه أنه كبر في

بيت عمه الملك، بعد مقتل والده غيلة على يد أحد الضباط الموالين للملك غايا.

لكن أحدا لا يعرف بالضبط كيف مات شقيق ملك مازيسيليا يدر، والأرجح أنه قتل بإيعاز من الملك غايا نفسه، طمعا منه في ضم المقاطعات التي كان يحكمها الأمير المقتول، وقد تركت تلك الحادثة أثرها الكبير في العلاقات بين المملكتين، وهي التي تميزت بالتوتر والاضطراب، فجاء الرومان وخلافهم مع قرطاجنة ليزيد من تأزمها.

نهض سيفاو بن يدر تلك الليلة باكرا، وهو الذي اعتاد أن ينام حتى الضحى، وعندما طلب منه ابن عمه الأمير صيفاقس أن يستيقظ باكرا، أصر عليه أن يجمع كل مستلزمات السفر من أغطية وأوعية وآنية وطعام، وقد أمر أن يتكفل بذلك جميع خدم القصر، ولم يسأل سيفاو عن وجهتهما ولا حتى الهدف من السفر، واكتفى بالسؤال وهو يتثاءب: كم ستطول غيبتنا؟.

أخبره صيفاقس أنها مدة طويلة، قد تتجاوز العشرين أو الثلاثين شهرا، فظن سيفاو أن ابن عمه الأمير يمازحه،

ولكنه تيقن بعد ذلك أن هذه الرحلة قد تستغرق عمرا بحاله فمن يدري عن أي شيطان مريد يفتش هذا الأمير المهووس بالمغامرة والقتال والمعرفة.

انطلق الفارسان، كل على حصانه، وأخذا معهما بغلا ضخما رشيقا يجر معه حمارا قوي البنية، حملا عليهما أمتعتهما وزادهما، فقد كان صيفاقس بن يفاو حريصا على ألا يحتاج شيئا أثناء الطريق، وخاصة عندما يتجاوز أراضي المملكة في طريقه إلى قرطاجنة، وكان والده قد نصحه أن يركب البحر، لكنه رفض بشدة محتجا أنه لا يخاف خطر الطريق، وكأنه يريد أن يثبت لوالده أن خصمه ماسين بن غايا ليس أكثر منه شجاعة ورجولة وفتوة.

قال لحظتها: ولم البحر يا أبي، وكلي رغبة في رؤية أراضي وطني من أولها حتى آخرها.

قال الوالد الحكيم الحريص على سلامة ابنه: أنت تعرف قصدي، ولا أريدك أن تشتبك مع أبناء عمومتنا في الشرق، فنصبح في مشكلة نحن أغنى الناس عنها، يكفينا الهانيبعليون والرومان معهم.

كان لكلمة "أبناء عمنا" وقعها المميز في أذنيه، وهو العجوز والده يعترف أنهم أبناء عمومة، يعني أقرب دم، ثم يصر على قتالهم وقتلهم، ويقف في وجهه عندما يحاول أن يسعى للصلح، همس بكلمات تمنى أبدا ألا تخرج من فمه لكنها الحقيقة، نحن لا نجيد إلا التآمر والقتل، ليتك يا أبي علمتنا كيف نحب ونعشق ونتسامح، كان ومازال يتمنى السلام والطمأنينة، لكنه اليوم يسعى وراء الصلح أو القتل مثل أبيه إن لزم الأمر، إنه التناقض المثير بين ما نحب ونشتهي وبين الواقع والمفروض الذي نحيك تفاصيله بأيدينا، لهذا كان الفارس مرهف الإحساس لطيفا يبحث عن السلام، وقاسي القلب، غليظ النفس على استعداد لقتل صدربعل جيسكو لإيقاف حرب مجنونة لا هدف لها، كأنما الذي أشهر سيف القتل استمرا العملية واستطابها، والعجيب أن أرباب الحرب الرومان لا يختلفون كثيرا عن أرباب قرطاجنة، كلاهما يعشقون الدم.

قال وهو يشد هندامه: لك كل الاحترام يا أبي، ولكني سأحرص على ألا أثير انتباه أحد، فلا توص

حريصا، فليس أدرى مني بما أنا مقدم عليه، وتحدوني الرغبة أيضا في رؤية تلك البقاع، فلا تحاول حرماني من تحقيق رغبتي، وهم لن يعرفوني على أية حال.

قال: طالما عزمت، صاحبتك السلامة، ولا تنس يا بني أن تذهب إلى المعبد، وتقدم قربانا لربنا العظيم أيور، الهلال، لتحفظك الآلهة وتسدد خطاك.

واصل الركب المازيسيلي سيره الحثيث بقيادة صيفاقس، وكان أثناء الطريق يسأل ابن عمه سيفاو، عن أدق التفاصيل الصغيرة، وعن أشياء كثيرة يصعب أن تصدر عن أمير مثله، فيقول: وهل أحضرت بعض العسل الأسود، أرجو ألا تكون قد نسيت اللحم المقدد الذي أفضله، وأنت أيضا أعرف أنك تشتهي المشمش المجفف هل أحضرت الكمية المناسبة؟.

كان سيفاو يستمع مكرها إلى تلك التفاصيل، فيقول نعم نعم لقد أحضرت كل شيء، حتى الذي لا يخطر لك على بال، وعندما لا يسمع صيفاقس إجابته، كان يرفع صوته قائلا: أيها الشاب الغافل، هل أحضرت الملح الخاص بتلميع السيوف، أعتقد أن

خنجري فقد بريقه قليلا، فيرفع الآخر صوته متأففا: نعم أقسم بأرباب الأرض جميعا أني أحضرت، ولكن قل لي أيها الأمير العاشق: كيف فقد خنجرك الذهبي بريقه، إنه ليس من النحاس كما أعرف، وقد أهداك عمي الملك ذلك الخنجر أمامي؟.

التفت صيفاقس نحو ابن عمه، وقال وهو يلوي رقبة حصانه: نعم صدقت، كيف فاتتني هذه، لكنني كنت أقصد خنجري الآخر الذي في الصندوق، أرجو أنك قد أحضرته.

همس سيفاو: أنت دوما تقصد شيئا، حتى لو لم تكن تقصده، المهم عندك أن ترهقني بظنونك، وكل ما آمله أن تقيم في قرطاج وتتزوج فيها وتشيخ فيها أيضا، وتترك لي فرصة التمتع مع حبيبتي، لم أعد واثقا حتى اليوم هل هي واقعة في حبي أو تمثل علي دور العاشقة كي أغرم فيها أكثر..لست أدري، ورب القمر وكل الكواكب، قال جملته الأخيرة بصوت مرتفع لفتت انتباه ابن عمه، الذي تفرس فيه قائلا: ما أنت فيه يدل على حالة عشق متأخرة ومزمنة، قل هل أصبت في ظني؟.

ارتفع صوته: قل مالك لا تجيب، إنك عاشق يا ابن عمي الغر الصغير.

لم ترق هذه الجملة لسيفاو الذي رأى فيها استصغارا واحتقارا له، فاحمر وجهه من الغضب وعجز عن كظم غيظه، فأصر عليه صيفاقس واستفزه قائلا: من هي الحمقاء التي ستعشق فتى مثلك، وهل فيك ما يغري النساء؟.

انفجر سيفاو غضبا وقال كأنما أصابته عاصفة من القهر: وما يعنيك أنت، لقد اتفقنا على الذهاب معا إلى قرطاجنة لكي نتعلم ونستفيد، وليس لكي تشبعني إهانات، وإن استمريت معي على هذا الحال فسوف أعود أدراجي من حيث أتيت، ولن أسمح لك بعد هذه اللحظة باستصغاري والحط من قيمتي.

قال صيفاقس الذي عقدت المفاجأة لسانه، وكادت أن تطيح به أرضا، فهو لم يتعود هذه اللهجة من ابن عمه: بإمكانك الذهاب، لن أتشبث بذراعك وأستجديك لكي تبقى معي، هيا يمكنك العودة، ولكن

عندما يهبط عليك الظلام أرجو ألا تتبول في سروالك من الخوف.

كان ذلك كافيا، لكي ينفجر سيفاو أكثر، فأقسم ألا يسير معه مسافة أخرى، فشد لجام البغل وانفتل راجعا، وهو لا يلوي على شيء، تأكد صيفاقس من جدية الموقف، وأن ابن عمه لم يكن يمزح، وليست تلك فورة غضب عابرة، فأسرع وراءه وهو يصيح: عد أيها الأحمق، عد ولا تكن مجنونا مثل ابن عمك، ألا يكفينا مجنون واحد، عد أرجوك.

مع الرجاء الأخير توقف سيفاو، ثم هتف لابن عمه دون أن يستدير إليه: عدني ألا تعود لمضايقاتك لي.

رد صيفاقس: أعدك، ولو كنت أعرف أن كلامي سيضايقك ما تحدثت ولا فتحت فمي.

عاد سيفاو على مهل، وكان يقول: أنت ابن عمي وصديقي الوحيد، وقد تجاوزنا سني المراهقة واللعب، وأصبحنا شبابا يحملون مسؤولية، لكنك تثقل علي أحيانا، بل وتعاملني كأنني ولد صغير، وتتناسى أن ما

بيننا هو سنة واحدة فقط، فكف عن ذلك، ولا أطلب منك غيرها.

اقترب صيفاقس بحصانه من ابن عمه، وعانقه وربت على كتفه، وهمس له بطيبة وحنان: أعتذر، هيا اقبل اعتذراي وسامحني، لم أقصد إزعاجك أو إهانتك، ولا يمكنني أن أكون بمثل تلك الأخلاق، ربما نسيت نفسي قليلا، فاصفح أيها الشاب الطيب.

بعد كل تلك المسافة الطويلة التي قطعاها معا، لم يخطر له أن يسأله عن وجهة سفرهما، لكنه أدرك من خلال حديثه أن ينوي الذهاب إلى قرطاجنة أو بالقرب منها، سأل سيفاو ببراءته المعتادة: هل سنذهب إلى قرطاج أو إلى مصر، لقد أخبروني أنك تحلم بزيارة الإسكندرية، فهلا أخبرتني بالحقيقة.

أجاب صيفاقس ممازحا: هب أننا في طريقنا إلى مصر هل يضيرك هذا، ربما تتحرق لزيارة تلك البلاد الساحرة؟. قال: قد سألتك أنت ما هي وجهتك، ولم أخبرك عن رغبتي أين أحب أن أذهب، صمت قليلا ثم

تبع، مع أني لا أنكر رغبتي لزيارة مصر، ولكن ليس في هذا الوقت، وليس برفقتك أيضا.

انفجر صيفاقس ضاحكا، وكان يقول: هل تنغص عليك رفقتي، هل تكره صحبتي يا ابن عمي العزيز؟.

قال: لا.. بالتأكيد لا أكره رفقتك، ولكن لي برنامجي الخاص بمصر.

ازداد صيفاقس ضحكا بعد سماعه لهذه الجملة، التي قالها سيفاو بكل جدية ورصانة، فأصبح صيفاقس يقهقه بدوره ويقول: إن له برنامجه الخاص، وأفلتت من فمه أثناء ضحكه جملة وقف لها شعر رأس سيفاو بن يدر، إذ قال في غمرة فرحه، اصبر حتى نقتل غايا أو صدربعل وبعدها سيكون كل شيء سهلا.

انتبه لزلة لسانه القاتلة، ولكن السيف سل من غمده ولا جدوى من محاولة إعادته بحجة الغلط، فتابع بهمس: تلك هي الحقيقة التي لم تسألني عن فحواها، وما زال الأمر بيدك فلن أجبرك على الذهاب معي، بإمكانك العودة إلى الديار وكأن شيئا لم يكن.

كان سيفاو أصفر الوجه جاف الفم، لقد عقدت الدهشة والمفاجأة لسانه، فقال بعد جهد: لن أتركك أبدا، ولم أكن أرغب في معرفة نهاية طريقنا هذه، ولكن طالما عرفت من زلة لسانك، فاعلم أني معك حتى لو قطعنا البحر والصحراء، ولكن عندي سؤالا واحدا.

قال صيفاقس: تريد أن تعرف لماذا؟. هز سيفاو رأسه مؤكدا صدقية السؤال، أي سبب وجيه يدفع بشابين من العائلة الحاكمة لمثل هذه المغامرة الخطرة، وإن تحتم قتل حتى هانيبعل نفسه، أو أيا من قادة قرطاجة فلماذا لم يتكفل بالمهمة من هو أكثر خبرة ودراية منهما، إن في الأمر أسرارا كثيرة، وربما مزحة اغتيال صدربعل جاءت لتتغطي على أمر أدهى وأخطر، مع كل هذه الهواجس والأسئلة التي تلاطمت في رأسه، لم يعد يعرف من أين يبدأ، تابع صيفاقس بهدوء مصطنع: سوف أخبرك لاحقا ولن أخفي بعدها عنك شيئا.

رسم سيفاو بن يدر ابتسامة بلهاء لا تعني شيئا، وإنما كل ما يحيط يستوجب البله والحمق أيضا، أما صيفاقس فكان يعرف تماما أنه مهما حاول واخترع من البطولات

الخارقة. فليس بإمكانه ولا بقدرته ليس فقط قتل صدربعل، وإنما الاقتراب منه أيضا، لكنه حمّل نفسه مسؤولية مهمة لا يقدر على مثلها إلا هو، صيفاقس بن يفو وابن عمه سيفاو بن يدر، وكانت قرطاجنة بكل جمالها وروعتها وجبروتها، مطمحا بالنسبة له، لكنه أراد أن يدخلها كزائر غريب فقط، يتجول فيها قليلا ثم ينطلق إلى مهمته التي نذر نفسه إليها مع ابن عمه الذي عليه أن يأخذ بثأر والده بيده، وليس مهما كما يرى صيفاقس أن يعلم بالمهمة ولا أن يخطط لها ابن عمه، وكل الأهمية عنده أن ينفذ بيده حكم الإعدام بحق قاتل والده، لقد كان القتيل شقيق ملك، وبالتالي تلك حسب قوانينهم وأعرافهم مسألة شرف وكرامة ومروءة، إنه شرف العائلة حيث لا يسمح لأحد بالخوض فيه إلا أن يكون من العائلة نفسها.

قال صيفاقس: عندما يكون لك ثأرا عند أحدهم، فلا تسأل نفسك هل آخذ بالثأر، وإنما ليكن جل تفكيرك واهتمامك كيف تأخذ بثأرك وإن تأخر الوقت عليك.

همس سيفاو الذي لا تخفى عليه قوة المدينة وبأس قادتها: ولكن ما لنا ولأسياد قرطاجنة، لم يقاتلونا يوما ولم نقاتلهم، إنها اللعينة روما عدوة الحياة والشمس.

ماذا من هي عدوة الشمس؟ سأل صيفاقس، حيث ارتفع صوت سيفاو وهو يلعن الرومان، فقرعت اللعنة طبلة أذنه، فقال: لا تنس أننا حلفاء لروما، وسوف نقاتل إلى جانبها ضد قرطاج ومن يقف معها، صمتا معا لفترة طويلة كأنها دهرا، قطع صيفاقس الصمت بالقول: أظنها كما تقول عدوة الشمس، رغم أننا جميعا نعبد الشمس، هل رأيت مثل هذه المفارقة المضحكة؟.

قال سيفاو: لكن الرومان يعبدون ربة القمر ديانا وأشياء أخرى، ولا أستغرب لو رأيت رومانيا يعبد النمل أو العصافير. قال: لعلك محق في هذه، فإنهم يعبدون أي شيء يخطر على بالهم.

سارا بعد تلك الحادثة مسافة طويلة لم يتحدثا فيها بكلمة واحدة، لقد آثرا الصمت على أن يدب الخلاف مرة ثانية، وأخذ سيفاو يغني بصوت خافت حزين، فأثار صوته الشجي الشجن والحزن في نفس صيفاقس

المعتد بنفسه وقوته، كان يشعر أنه أخف من الهواء الذي يتلاعب بأعراف خيلها، لقد كان يمتلك عينان حادتان، يخال الناظر إليه أنه يقرأ دواخله، أما ملامحه الحادة فتدل على شخصية قوية آسرة، إنه كما كانت تصفه تامولت لصديقاتها أجمل شاب في نوميديا كلها، إنه يأسر كن بنظرة واحدة من عينيه، وعندما أشاهد شعره الناعم يتطاير في الهواء ويحط على جبهته أتمنى أن أحتضنه وأزرعه على صدري، إنني أعشقه هذا كل ما أعرفه.

لقد بلغ بها العشق أن اقتحمت عليه غرفته ليلة قرر السفر، كانت شبه عارية أو شبه مستترة، ولم يكن يعنيها أن تلبس أو تخلع حتى جلدها، فلما سمعت والدتها تتحدث عن نية الأمير بالسفر نحو قرطاجنة، هبت واقفة وانطلقت مسرعة نحو غرفته، فدخلت عليه وهو مستلق على سريره لا يغطيه سوى رداء خفيف، وكانت تامولت قد لفت جسمها الممتلئ قليلا داخل قميصها الأحمر الخفيف، ولم يتسن لها أن تغطي نهديها كما ينبغي، فتركت خصلة من شعرها الطويل الأشقر تقوم عنها

بالمهمة، ولما جلست بالقرب منه، لم تتمالك نفسها فألقت نفسها في حضنه، وأخذت تقبله بنهم وشبق رغم محاولاته الابتعاد عنها والتخفيف من غلوائها، لقد أخذته على حين غرة وكاد أن يسقط صريعا على صدرها لولا أن ألقاها أرضا وأمسك بكلتا يديها، وهو يصرخ: هل جننت يا تامولت، ما الذي يدفعك إلى هذا الجنون.

كانت تامولت تجاهد نفسها في البكاء، لكنها فشلت في استحلاب دمعة واحدة من عينيها، بل وجف ريقها أيضا، بعدما تأكد لها أنها ستفقده إلى الأبد، فأخذت تشهق وتنتحب بصوت خفيف وبعينين جافتين وأخيرا قالت: أعشقك وأعشق كل شيء فيك، وإن كان لابد من السفر فخذني معك خادمة ورفيقة وعشيقة، لا يهمني ما أكون بل أن أكون معك.

كاد أن يوافق تحت إلحاحها، لولا أن دخلت والدته الغرفة ونهرتها وشتمتها، وأعادتها إلى رشدها، تلك ليلة كان من الصعب عليه أن ينساها، ومع ذلك لام نفسه لأنه لم يطيب خاطر تلك البنت العاشقة، فلم يكن يضيره شيئا لو أنه سمح لها بالنوم معه تلك الليلة، أو

على الأقل يروي ظمأ شفتيها، ويطفئ بعض لهيبها، يا لي من أحمق جاءته المتعة تجري على قدمين فجحد بها وأنكرها. ارتفع صوته وهو يردد: يا لي من أحمق.

كان سيفاو يغني للحبيبة والبحر والسماء الموشاة بنجيمات فضية، وصيفاقس يستمع بدهشة وسرور، وهو يحاول اكتشاف شخص آخر في ابن عمه لم ينتبه إليه من قبل، فأخرج هو الآخر مزماره وطفق يعزف متناسيا كل ما يدور حوله، لقد كانت بعض الأعين الغريبة تتبعهما، فوجدا لهما جمهورا من شخصين أو ثلاثة من عابري الطريق، أعجبهم المغني والعازف معا، لكنهما لم يلتفتا للتشجيعات ولا للأصوات السعيدة بما تسمع وتطلب المزيد، تجاوزا البلدات والقرى، واتجها إلى حدود الصحراء، فقد وضعا خطة لدخول قرطاجنة من الجنوب، على تخوم البوادي والصحراء، وكانت تلك الطريق آمنة هادئة، إلا من بعض الوحوش والحيوانات المفترسة، وفيها الماء العذب والصيد الوافر، وكلاهما صيادان ماهران، لا تعوزهما الحنكة والدراية.

سأل صيفاقس: هل نستريح هنا أو نتابع قليلا؟.

قال سيفاو: فلنسر ساعة أخرىٰ، وبعدها يمكنن المبيت حتىٰ الفجر، وأظن أن أمامنا علىٰ مسيرة قصيرة يقع واد عذب الماء كثير السمك، فما قولك؟.

قال: فلنتابع طريقنا، طالما ستتكفل باصطياد السمك وشيه، سارا مدة من الوقت، ثم سأل صيفاقس: أخبرني واصدقني القول هل أنت عاشق يا سيفاو؟.

قال، وهو يظن أن ابن عمه الأمير يشاهد الحمرة التي تلون بها وجهه، مع كل هذه العتمة: هل تعتقد أن توسهان تعشقني؟.

قال: ومن تكون هذه الغادة المحظوظة بحب الأمير سيفاو بن يدر؟.

قال: إنها توسهان الشقراء ابنة الكاتب غيلاس، إنه كاتب عمي الملك الموقر.

لم يصدق صيفاقس أن ابن عمه يعشق هذه الحسناء، التي نظم فيها شعراء القصر القصائد، فقال مستوضحا: قد عرفت غيلاس، فهل تعني أن ابنته الفاتنة مغرمة بك؟. قال سيفاو الذي بدأ صبره ينفذ، لكنه اغتر بنفسه لما رأىٰ الدهشة علىٰ وجه ابن عمه: نعم فهل لاحظت ذلك.

أجاب وهو يمط شفتيه، محاولا انتقاء الكلمات المناسبة: تعشقك.. تقول تعشقك، أظن أن هذه الكلمة غير مناسبة، فلنقل معجبة بك أو تحبك ربما، أخبرني أنت هل تحدثتها... تقابلتها.. صنعتما أشياء يصنعها العشاق؟.

كان سيفاو يتميز من الغيظ، وهو يحسب أن ابن عمه عاد إلى عادته القديمة للسخرية واللعب، فقال بجفاء: لو تحدثت معها لما كان من داع لسؤالي أيها العبقري، هل فاتتك هذه أيها الأمير الفطن؟.

قال: هل تعتقد أنني أسخر منك، أبدا أبدا، وإنما أردت أن أعرف هل صارحتك بحبها أو سبق لك أن انتزعت قبلة من شفتيها، لست أدري إنه حال العشاق كما يقولون.

قال سيفاو: يقولون إنها مغرمة بشاب في القصر، لكن لم يخبرني أحد من يكون؟.

توقف صيفاقس عن السير، شد لجام حصانه، ثم اقترب من ابن عمه، ولما أصبح قبالته، تمكن سيفاو من رؤية ملامحه جيدا، تحت ضوء القمر الساطع، فشاهد

وجهه لم يألفه من قبل، كان جامدا بتقاطيع حادة وعينين نفاذتين، وسمعه يقول: اسمع وافهم، تلك الفتاة تحبك، بل لا تحب أحدا غيرك، إنها تبحث عمن يحبها، وأظنها كانت تتحرش بك أيضا، ولكني لست ممن يراقبون سلوك النساء ففي رأسي من الهموم ما يكفي ويزيد، فإن أردتها حقا فامتصها كما تمتص النحلة زهرة القرنفل، أو ابحث عن غيرها إن شئت.

كان الوجل والخوف قد استبدا به، فسأل: لم تقول لي ذلك؟. قال بصوت مرتفع: لأنك بدأت تثير غضبي، فلا تحدثني عنها بعد اليوم، ماذا لدينا للعشاء؟.

استولى التوتر على سيفاو، لكن عند سماعه للسؤال الأخير أخذ يضحك كالمجنون، وهو يقول: أحدثه عن الحب والعشق، فيسألني عن العشاء، لست والدتك أيها الأمير.

انتقلت عدوى الضحك إلى صيفاقس، فطفقا يضحكان معا، لقد عادا بسرعة إلى الوراء، فاكتشفا أن الطفولة فيهما لم تمت، فما زالا بعد صبيين صغيرين يلهوان معا في جميع زوايا القصر، ويدل تماديهما في المزاح

على حنينهما لذلك الزمن الذي ولى سريعا، وجعل منهما شابين ناضجين قبل الأوان. أخذ سيفاو يتقافز فوق ظهر الحصان كالصبي، فأشعلت حركاته القردية هذه موجة عاصفة من القهقهة أطلقها صيفاقس، متغافلا ومتخليا عن حذره الذي اعتاد عليه، فأصبح جزءا من شخصيته، فلم يكونا في مكان ولا في أرض تسمح لهما بمثل هذا المجون واللهو الصبياني كما وصف ذلك لاحقا، وإنما كان عليهما أن يصغيا إلى تلك الجلجلة والفحيح الذي كان يحيط بهما، لقد توقفا معا على صوت عواء غريب، يشبه الضحك الهستيري.

كان صيفاقس يسير أمام ابن عمه، عندما سمعا ذلك الصوت المرعب الذي يحبس الأنفاس، ولم يعرفا من أين خرج لهما هذا الضبع الإفريقي، وهو على استعداد لافتراسهما مع أحمالهما، استل سيفاو سيفه وهو يحاول السيطرة على ارتباكه، لقد كانت المفاجأة عظيمة، وهما يعرفان أن هذا الوحش إن تمكن من إرباكهما، فسوف لن يتركهما إلا جثثا ممزقة، وجد صيفاقس نفسه وجها لوجه مع هذا الوحش، لم يسعفه الوقت لكي يخرج السيف من

غمده، تلك لحظات هي الأغلى والأثمن في الحياة على الإطلاق، ولا مجال فيها للانتظار، وتلك كانت غلطة سيفاو الفظيعة، ساعة تأخر عن تسديد الضربة القاتلة إلى قلب الضبع الضخم.

تحدث أبنا العم أثناء مسيرهما في كل شيء وعن كل شيء، إلا عن شرور الطريق ومخاطرها، ربما لرغبة في نفس صيفاقس بعدم إثارة الرهبة والفزع في قلب ابن عمه، وما تحاشيا الخوض فيه وقع لهما، ولولا سرعة صيفاقس ومرونته لفتكت بهما أسرة الضباع تلك وما أبقت لهما أي أثر.

لقد تمكنا من النجاة ولكن بعد أن خسر صيفاقس جزءا من كفه اليمنى، وجزء آخر من فخذه، حتى أنه أدخل يده وهو ممسك بالخنجر في فم الضبع، وأخرجها تقطر دما، ولم يكن يدري هل هو دمه أو الدم الحار الذي انفجر من حلق الضبع الضخم، ولولا تلك المحاولة اليائسة لكانت الآن الضباع جميعا تتراقص على جثته وتتقاسم الأشلاء فيما بينها.

الغريم

في الوقت الذي انطلق فيه صيفاقس برحلته العجيبة نحو بلاد المعرفة والجمال والفنون، وهي عجيبة لأنه الوحيد من قومه الذي يقرر الذهاب إلى قرطاجنة برا، وقد كان غنيا عن ذلك، لو أنه ركب إحدى سفن المملكة، لكنه آثر المغامرة، يحدوه الأمل في اكتشاف البلاد التي ستخضع له جميعا عن قريب، فكاد أن يفقد حياته بين أنياب ضبع، وهكذا عاد قبل أن يبدأ.

لكن خصمه العنيد الذي لم يسبق له أن اجتمع به، كان قد وصل إلى قرطاجنة، لكنه لم يذهب إليها لنفس الأسباب التي حملت صيفاقس للمغامرة بحياته من أجل هدف يستحيل تحققه، ولما أفلتا من الموت تهشيما بين الأنياب، عمد سيفاو إلى تضميد جراحات ابن عمه الأمير، وقد كان يخشى عليه الموت جراء ما تعرض له من عض وحشي، فحمله على حصانه وانطلق مسرعا نحو أقرب بلدة منهما، باحثا عن طبيب لإسعاف الأمير، ولم يبال بجميع الأحمال التي كانت معهما، والتي ذهب معظمها طعاما سهلا للضباع.

وإذن في تلك الأثناء كان ماسين الشاب النوميدي الآخر قد سبقه في الوصول إلى قرطاجنة، لقد كانت له في تلك المدينة ذات الأسوار الحجرية الضخمة، والأبراج العالية الرائعة، والشوارع الحجرية النظيفة، ذكريات جميلة لا يمكن نسيانها، وقد جاءها اليوم لكي يستكمل تعليمه على يد أساتذتها، رغم أن والده هو الآخر حاول ثنيه في البداية عن الذهاب المبكر، قائلا: لم العجلة يا بني، يمكنك هنا أن تحضر من الأساتذة والمعلمين من يقومون بكل شيء؟

لكن ماسين الذي سيكون بعد سنوات ماسينيسا، أي سيد قومه وكبيرهم، قال: هل يعقل يا أبي أن أستأثر بالعلماء والمعلمين لنفسي دون بقية الناس، فكما أرغب أنا في العلم والمعرفة، هنالك غيري من يحبون ذلك، وإذن فلنتعلم جميعنا معا، ولو أن كل ابن حاكم وأمير وثري استأثر بالعلماء لنفسه، فمن سيعلم بقية الناس؟.

أعجب العجوز غايا بحجة ابنه، فسره سماع ذلك منه، فهاهو الشاب قد كبر وأصبح يقول الحكمة، نصحه والده

أن يتوجه إلى قرطاجنة فلن يجد مثل مدارسها على الأرض التي تعلم فنون الحرب والقتال.

فقال ماسين: ولكن يا أبي ما قولك بروما؟.

قال الملك: لا أنصحك بهؤلاء الغرباء، كما أنك لن تجد عندهم ما تصبوا إليه من معرفة حربية، لقد تعلموا هم بدورهم على يد الضباط الفينيقيين.

كان ماسين قبل ذلك قد نال قسطا وافرا من العلم والمعرفة على يد معلمين من الإغريق، فقد سافر في صباه المبكر إلى الإسكندرية، فأجاد الفلسفة والمنطق والرياضيات، وبرع في الموسيقى والفلك، ونظرا لما كانت تتمتع به قرطاجنة من سمعة في فنون القتال عمل ماسين بنصيحة والده غايا، فتحضر وتجهز للذهب إلى قرطاجنة، وهو يمني نفسه في اكتساب خبرة وحنكة قتالية.

وصل ماسين إلى المدينة الغنية الساحرة، قبل نده صيفاقس بعدة أشهر، ولم يدر بخلده يومها أنه سيلتقي بهذا الشاب المغامر والمزعج، ولو قدر له أن يعرف ويطلع على الغيب لاختار روما عن طيب خاطر، لم يكن يشاطر والده في كرهه وخشيته من أبناء المملكة الغربية،

لقد كانوا برأيه أبناء عم اختاروا طريقة حكمهم، ومن حقهم أن يتحالفوا مع من يشاؤون شريطة ألا يؤذوا جيرانهم، وألا تكون تحالفاتهم على حساب غيرهم، لكن غايا الملك كانت له رؤية مخالفة، وعندما كان يشتد النقاش بين الولد وأبيه، كان الملك يحسم النقاش بالقول: إنني أحدس يا بني، هل تؤمن بالحدس؟. فيسأل قائلا: ماذا يخبرك حدسك الملكي؟ قال الملك: أخبرني أنني لم أحسن تربيتك وتأديبك كما ينبغي، فتطاول لسانك قليلا أكثر من الطول المعتاد للأولاد الذين هم في سنك. ثم سأله وهو يبتسم: أليس كذلك؟.

ضحك ماسين من أعماق قلبه، وهو يستمع إلى والده الذي شاطره الضحك بابتسامة كبيرة، وقال وهو ما يزال يضحك: كل ما في الأمر أني أرغب في معرفة رأيك بمنتهى الصدق بأولاد عمومتنا في المملكة الغربية، هل نطمئن لهم أم لا؟.

قال: وبعد أن تعرف مدى صدقي ماذا ستصنع ؟.

ارتبك الابن الشاب من إصرار والده على تجاهل رغبته، فقال بيأس: كما ترغب يا أبي فأنت مليكي وملكنا جميعا.

مد الوالد يده نحو ابنه قائلا: تعال يا بني، لم أقصد إحراجك أو الحط من قيمتك، وإنما أريدك أن تعرف أني لم أتخذ موقفا معاديا ممن تسميهم أبناء عمومتك من فراغ، إنهم لا يحبون لك الخير، ويتمنون أن تحيق بك جميع المصائب.

قال بتعجب وهو يرفع خصلة من شعره نزلت على وجهه: ولكن لماذا كل هذه العداوة والقسوة؟.

لم يكن أمرا معتادا من ماسين أن يتهم والده بالقسوة لمن يعتبرهم أهله، لكنه صنع ذلك بفعل العلاقة المميزة التي كانت تربط بينهما، لقد كان الوالد يرى في ابنه رجلا قادرا على صنع كثير مما عجز هو عن تحقيقه، إنها الثقة الكبيرة والصداقة الفريدة بينهما، فرك الملك لحيته، ومسد شاربه، ثم قال: لو أخبرتني لماذا يعبدون الرب أيور إله القمر، وانصرفوا عن عبادة ماجك وأمون، آلهة الشمس، هلاَّ أخبرتني لماذا فعلوا

ذلك؟. هب أنهم أعداء ألداء لقرطاجنة، فهل يعني هذا أننا بتنا أعداءهم أيضا؟ ثم لماذا يتوددون إلى الرومان مثل.. مثل الزواني البشعات، ألم تعلم أنهم على استعداد لتقبيل كل حذاء روماني مهما كان قذرا.

قال ماسين: الحذاء هو حذاء أيها الملك، مهما كان نظيفا أو وضيعا.

قال كمن وجد شيئا ثمينا: ها أنت قلتها، يبقى الحذاء على حاله مهما كان نوع الجلد الذي صنع منه.

قال الملك غايا: لذلك اغتنم من الفرص ما استطعت وتعلم ما أمكنك، وإني إذ أوصيك أن تتعلم من القرطاجيين، فلا أتمنى أن تكون تابعا لهم، بل حافظ على استقلالك عن الجميع، وتجنب العداوات ما استطعت وخاصة تلك التي لا تجد في نفسك طاقة على قتالها.

كانت تلك نصيحة تعلمها ماسين من والده، ترسخت في رأسه وذهنه طيلة حياته، ولولا تلك الفتاة الرائعة لما اضطر إلى معاداة قرطاجة وقتالها، وهاهو اليوم يتعلم من أساتذتها ومعلميها أصول الحرب وفنون القتال.

رحب القرطاجيون بـابن الملـك غايـا، فـأفردوا لـه جناحا خاصا في مدرستهم الحربية التـي كانـت إحـدى جهاتها تقع على شاطئ البحر الصخري، لكنه طلب من معلميه أن يتعاملوا معه كبقية الطلاب، فلم تكـن عنـده رغبة في التميز عنهم لأنه ابن ملك، لقـد كـان يشـعر في قرارة نفسه أنه لا يختلـف عـن هـؤلاء الطلبـة إلا بقـدر مهاراته وإتقانه لما جاء من أجله، لكنهم عاملوه حسـب منزلته أبعـدوه عـن القتـال مـع بقيـة الطلبـة، احترامـا وتقديرا لـه، وقـد أثـار ذلـك حنقـه، فـأطلع معلمـه في الرماية على رغبته، فأكبر ذلك المعلم رغبته، وأعـاده إلى صفوف الطلبة الآخرين.

أطلق الطلبة النوميديون عليه لقب ماسينيسـا، بعـد الذي لمسوه فيه من قوة شخصية وتفوق وحب للزعامـة والسيطرة، لكنـه مـع ذلـك كـان أهـلا للقيـادة ولـيس متعديا هجينا عليها، لقد كـانوا يغبطونـه عـلى حنكتـه، وكـان بحـق سـيدهم وأكثـرهم علـما ومعرفـة وجـرأة وشجاعة، حيث أوتي قوة وفتوة حتى عجز جميع الطلبـة عن صراعه والتغلب عليه، وعرفت المدرسة العسـكرية

بوجوده حركة وصراعا وتحزبا، حيث انحاز بعض الطلبة إليه واعتبروه المعبر عنهم والناطق باسمهم، بل وأعطوه علمهم أيضا، فقد كان من تقاليد تلك المدرسة أن يكون لكل جماعة من الطلاب العسكريين علمهم الخاص بهم، أو رايتهم المميزة، كأن يمثل جنسيتهم أو موطنهم الأصلي، أو طبيعة الفنون القتالية التي تخصصوا فيها، وحدث أن كان الطلاب المتدربون يتسابقون، ويظهرون مهاراتهم القتالية وهم على ظهر أحصنتهم، حضر إلى مدرسة القتال القائد العسكري القرطاجني صدر بعل جيسكو، لينظر مدى التقدم الذي حققه الطلاب في تدريبهم، وكان هذا من القادة النادرين، ليس بسبب قرابته البعيدة لقائد قرطاجنة هانبيعل، وإنما لبراعته الفائقة في المناورة والقتال.

وقف القائد الفينيقي غير بعيد عن ميدان السباق، مراقبا ما يجري في الساحة وغيرها من أقسام، لاحظ مدير المدرسة اهتمامه بحرارة السباق، وما رافقه من ارتفاع أصوات الطلاب الذين اشتد حماسهم، وأخذوا يهتفون باسم ماسينيسا، لفتت الأصوات المرتفعة انتباه

الوفد الزائر، وقد أحدث الطلاب شغبا وصخبا كبيرين، فأخذ صدربعل يراقب ما يجري، فاقترب منه مدير المدرسة وقال موضحا، وكأنه يعتذر: كل ذلك الصخب بسبب الأمير ماسين، إنه ابن حليفنا المازيلي الملك غايا.

رفع القائد حاجبيه من الدهشة، فظهر مثل القط الغاضب، بسبب حدة في عينيه وأنفه، وقال: أمير ويثير كل هذه الفوضى ويخالط أولئك الجنود الرعا.. ارتبك الأمير القائد، ولم يتم كلمة الرعاع التي كاد يزلق بها لسانه، وإلا لكانت إهانة وسبة بحق المدرسة العسكرية التي تخرج هو شخصيا منها، فأمسك لسانه وتابع، أي أمير شعبي هذا؟.

قال المدير وهو يزيد من كمية الاعتذار، كأنه ارتكب مخالفة يستحق التوبيخ عليها: إنهم ليسوا جندا ولا هم من العوام يا سيدي القائد، لقد اخترناهم وفق شروط قاسية للدراسة.

قال صدربعل مقاطعا: أنا أتحدث عن الأمير النوميدي.

قال: نعم ماسينيسا لقد أثبت كفاءة وقدرة وقوة لا تتوفر عند كثير من أبناء جيله، أتوقع هذا الأمير مستقبلا رائعا.

قطب القائد جبينه، فلم يرتح لكل هذا الإطراء والثناء، وقال: أراك معجبا بل ومفتونا به، دعني أرى ما عنده من خوارق معجزة.

أرسلوا وراء ماسينيسا، ودعوه للحضور على عجل، وفي الأثناء حضرت الحسناء القرطاجية صوفونيسبا، وتلك من المرات النادرة التي تحضر فيها إلى مثل هذه الأمكنة، التي يتقاتل ويتصارع فيها الرجال، يبدو أنها أرادت أن تغير بعضا من عادتها الملكية، وكانت أصرت على والدها أن يصطحبها إلى مدرسة القتال لرغبتها في رؤية مناظر جديدة ومشاهد غير اعتيادية، وقد دفعها لذلك ابن عم لها كثيرا ما تودد إليها طالبا قربها، وعندما كانت تنهره، يأخذ بالصراخ والتهديد بأنه سيلتحق بمدرسة القتال ويذهب للقتال مع القائد هانيبعل، كانت تشفق عليه لأنه وحيد والديه، ولم تكن تحبه وإنما تجد نفسها مرغمة على مهادنته

وملايينه، وجاءها من يخبرها أن ابن عمها التحق بالمدرسة فجاءت لمقابلته، علّها تتمكن من إقناعه وثنيه عن رأيه الصبياني.

كانت صفونيسبا حسناء مترفة الجمال، لم تعرف الأرض شبيهة لها في الشباب والصبا، لم تكن تتجاوز التاسعة عشر من العمر، طويلة ممتلئة، مكورة مدورة مستطيلة ومسطحة، كأنما كل عضو فيها أخذ كمال خلقه وإبداع صنعه، بيضاء مشربة بالحمرة، بشعرها الطويل الكستنائي، وذاك العسل الماثل في عينيها وشفتيها المتوردتين كزهرتي قرنفل، كانت بحق صبية رشيقة القوام والقد، وما خفي من جمالها تحت تلك الملابس الحريرية الناعمة، أروع بكثير مما ظهر منها، وما من غادة حسناء في قرطاج وما حولها من الممالك النوميدية إلا وتمنين بعضا من حسنها وجمالها، فهي مضرب مثلهن في الغواية والإغراء والدلال، حتى أن شباب قرطاجنة كانوا يعيرون صديقاتهم بما تمتاز به صفونيسبا من حسن وشباب، فأضحت محبوبة ومحسودة من كثيرين، ولم يخف بعض الشيوخ من ذوي المال والجاه والنفوذ

إعجابهم وطمعهم بها، ورغبتهم في امتلاكها، ولولا مكانة والدها ومنزلته الرفيعة بين رجالات الدولة لاختطفوها وأخذوها عنوة، وقد حاول أحدهم أن يفعلها ذات مرة، فوجدوه معلقا على أحد أبواب المدينة، كان صدربعل جيسكو يعرف قيمة ابنته أكثر مما تعرف ابنته وزنها ومقدارها، وهاهي مدرسة القتال تجتمع عليها لرؤيتها، فتبارى الشبان في إظهار مهاراتهم ورجولتهم أمامها، لعلهم يحظون بابتسامة أو تحية منها، فجاءها الكل يهرعون طلبا لابتسامة أو حتى إشارة أو رفة عين، إلا ماسينيسا الذي لم يكن قد سمع بها، وإن علم بأمرها من قبل لم يكن يعنيه اللحاق بها ومتابعتها، ليس لعفة فيه تجاه النساء، أو لأنه يحافظ على وفاء لحبيبة لا يعرفها غيره، وإنما لم يكن همه البحث والجري وراء النساء، لقد جاء إلى قرطاج لكي يصقل خبرته ومهارته القتالية، وبعدها له أن يفعل ما يشاء.

كان يردد دوما لأصحابه ساعة يخرجون للتنزه أو في الإجازات، من الظلم والإجحاف أن تعاشروا النساء ثم تمسكون بأعنة الخيل، وتقارعون السيوف، وفروا

طاقتكم وجهدكم، فمن العدل أن تحتفظوا بقوتكم لنزال الرجال الأشداء وليس لمصارعة النساء، ومطارحتهن الغرام.

ساعتها يتضاحك أصحابه ويطلقون تعليقات ساخرة، ويقول أحدهم: أنت تقول ذلك لأنه لم ينبت شاربك بعد كما ينبغي، فيمسكه ماسين من ذراعه ويتعمد الضغط عليه، ليريه قوته، ويعلق قائلا: بل قل أحتفظ بشبابي ولا أسرف فيه بين فخذي امرأة، ثم يتصنع الضحك ويقهقه، متابعا: وأي امرأة هذه، جوار قرطاجيات من هسبانيا وروما واليونان ولست أدري من أين يلتقطوهن.

لم يكن ماسينيسا الشاب المقاتل، من الزاهدين في النساء، الهاجرين للمتعة والجمال، فهو يشتعل فتوة وحرارة، وفيه وسامة وبهاء جعلت النساء يلاحقنه ويشتهين وصاله، قد شغفت به معظم فتيات مازيليا، وليس فيهن من لم تنم وصورته مطبوعة تتراقص بين عينيها، تحلم به يداعبها ويهمس في أذنها، فتتقلب في فراشها وهي تحسب نفسها نائمة بين ذراعيه وعلى

صدره، حتى إنها تخشى أن تفتح عينيها لرغبتها في الحفاظ عليه بداخلها، كان الفتى ماسين مطمعا للبنات وللنساء أيضا، وكم حاولت النسوة إيقاعه في حبائلهن، وهن المتزوجات، ربات البيوت اللواتي ينمن في أحضان أزواجهن، وتحلم الواحدة منهن بفارس يمتطيها غير هذا النائم بقربها، فقط حتى تستيقظ صباحا وتتفاخر أمام صويحباتها فتقول: لقد نام ماسين الفاتن الليلة على صدري وشممت رائحة شعره، آه منكن لو تعرفن ما صنع بي، وترسل ضحكة مغناج فاجرة.

ورث ماسينيسا عن والديه صفات خُلقية محببة، تميزت بالحميمية والدفء العاطفي ودماثة الأخلاق، كما تأثر كثيرا بعلاقة الحب التي تربط بين والديه، إذ كان الملك غايا مخلصا وفيا لزوجته، محبا صادقا لها، فاكتسب الصبي بعض ذلك الود الزوجي، فخرج مفتونا بأمه، كانت بالنسبة له أغلى وأهم أصحابه، يعتبرها مثله الأعلى، وقد عملت والدته على حمايته من شرور النسوة ومكائدهن، وخاصة من انحراف نساء الطبقة

الأرستقراطية اللواتي لم يكن لهن من هم وشغل سوى العشق والسهر والدسائس.

لقد فعلتها أكثر من امرأة، حيث كن يغتنمن فرصة دعوته لبيوتهن باسم أزواجهن، ثم يظهرن من حركات الإثارة والإغراء ما يجعل الكرسي الحجري الذي تجلس عليه يهتز حرارة ونشوة، ولم يعرف عنه احتقاره للنساء أو عدم مجاراتهن، لكنه شديد الكره للمرأة الخائنة، ولديه من الجرأة حد الوقاحة لكي يفضحها أمام زوجها، فقد تمادت إحداهن في إثارته، ولم يعد يطيق الصبر، فخاطب زوجها قائلا وبصوت مرتفع، يبدو أنك لم تشبع فرسك الليلة، لقد تركتها تتقلب وتتلظى من الشوق لبعض البرسيم وقصب السكر، ثم ضرب على ظهر الرجل وقال ضاحكا: إن الأفراس يعشقن قصب السكر كثيرا، فيه حلاوة وطراوة ولذة.

لم ينتبه الرجل لتلميحات ماسين، وقد لعبت الخمرة قليلا برأسه، فقال: لقد عودت فرسي أن أطعمها جيدا عند العصر، فجذبه إليه بعنف، وخضه خضا ثم قال:

لست ألومها على كـل حـال، فزوجهـا لا يعـرف هويـة الأفراس التي تعشق ليلا.

كان الرسـول الـذي جـاء يـدعوه لمقابلـة صـدربعل ثرثارا لا يستقر لسانه عن الحركة، يشعر بالضيق والتعب إن اضطر إلى ضبط لسانه، يكره أن يغلق فمـه، فيتحـدث مع نفسه يمدحها أو يهجوها إن لم يجد من يحدثه ويستمع إليه، أما ماسـين فكـان قليـل الكـلام، يغريـه الإنصات وسماع الآخرين، مهما كان الذي يقولونه تافهـا وصـغيرا، ومع ذلك ولحرصه على اكتساب ود الجميع، أقام علاقة طيبة مع هذا الثرثار الذي كان ينقل إليـه أخبـار المدرسة بالتفصيل، وفي أغلب الأحيان كان ماسين يكلّفه البحث عن أشياء خاصة يريـدها، فينتظـر فـترة قصـيرة وبعـدها يضع الثرثار بين يديه ملفا كاملا حافلا بـأدق التفاصـيل، وكل ذلك مقابل أشياء تافهة لا يمكنه تخيلها.

كان سباق الإثارة قد انتهى للتو، ولم يـزل الضـباط المتدربون في ثيابهم العسكرية، ومنهم ماسين الذي كـان يتحدث مع أحد أصدقائه طالبا منـه أن يتكفـل بإطعـام حصانه، لكـن الصـاحب اعتـذر لرغبتـه في النـزول الى

المدينة، حيث كان مدعوا إلى بيت أحد أقربائه، فطلب من ماسين أن يرافقه واعدا إياه بسهرة ممتعة لن يجد مثلها في كل بيوت المدينة، فاعتذر هو الآخر لانشغاله بما هو أهم من السهر، وقال وهو يفتح باب الإسطبل الذي انبعثت منه الرائحة الحادة لروث الخيل، للرجال ما يشغلهم وللفتيان ما يشغلهم، وأما الكبار فينصرفون لصنع الأحداث، فسأل زميله القرطاجي: ومن أي هؤلاء أنت؟.

قال وهو يرسم ابتسامة هادئة، لكنها تحمل كثيرا من المعاني: أنا من الذين يبحثون عن صناع الأحداث ليصنعهم.

صاح زميله بدهشة، مطلقا آهة كبيرة: ها أنت يا ماسين تثبت أنك ماسينيسا بحق، يقصد معنى اسم ماسينيسا وهو سيد القوم. قال: وهل كنت تشك في ذلك من قبل؟. قال: بل طالما تساءلت أي مارد تخفيه داخل هذا الجسد؟.

وصل الرسول الثرثار في تلك اللحظة، فأخبر ماسينيسا بالحديث الذي دار بين مدير مدرسة القتال

والقائد صدربعل، وتابع وهو يفرك يديه كمن عرف أسرارا خطيرة: ماذا ستمنحني إن أطلعتك على أشياء قد تسرك؟.

كان ماسين يقود حصانه وراءه، فقال وهو يقدم له بعض البرسيم الأخضر: اعتمادا على طبيعة الخبر، فإن كان سارا نلت جائزتك، وإن لم يعجبني فلن أعاقبك. قال ببهجة: إذن استعد لسماع الأخبار التي تسعدك وتسرك.

أطلعه أن هذا القائد المسمى صدربعل يريد رؤيته شخصيا، وأنه طلب من مدير المدرسة أن يقدمك إليه، فسأل ماسينيسا عن سبب هذا الاهتمام، فقال الثرثار، وهو يعصر أنفه من الفرحة، بعدما لاحظ أنه نال اهتمام ماسين وحظي بانتباهه: من المؤكد أنك أثرت فضوله لما عرف أنك أمير فارس، بل الفارس الأول كما أخبروه، ثم ضحك أو تصنع ذلك وهو يتابع: لقد رأيته وهو يقلب عينيه متفكرا فيما يفعله أمير مازيلي هنا.

قال ماسينيسا: قد أخبروه ذلك حقا، من الذي وصفني بالفارس الأول؟. المدير أو غيره من القادة، لا شك أن هذه من عندك.

صمت المرسول قليلا، متصنعا عدم سماعه للسؤال، ثم قال بصوت خافت وكأنه يذيع سرا: لقد جاء صحبة ابنته الحسناء رائعة الجمال صوفونيسبا، لو أنك تراها يا سيدي إنها الفتنة بعينها.

قال ماسينيسا: فتاة حسناء ورائعة الجمال هنا، أي شأن للحسناوات بنا، لا شك أنها ضلت الطريق، أو أرادت أن تتسلى بكم قليلا.

قال الثرثار وهو يدس شيئا، تناوله من يد ماسينيسا، في كيس كان على خصره: لو أنك كنت قرطاجي يا سيدي الأمير لنصبوك ملكا عليهم، لن يجدوا ملكا أفضل منك ولا أجمل منك وأكثر فتوة وقوة، خسارة.. قالها بأسف مصطنع.

نظر ماسينيسا إلى هذا المخلوق الودود، الذي يخاله الغريب من النبلاء العظماء، لقد كان مهابا أو هكذا يبدو، فيه وسامة وابتسامته جذابة، وقال: لقد بدأت تكذب وتنافق لقد حفظتك عن ظهر غيب، ولكن أخبرني لمن هذه الخسارة.. من هو الخسران؟.

قال: الجميع خاسرون يا سيدي، وكل ما آمله أن تظل صديقا لقرطاجنة، وأن تحتفظ قرطاج بحبها ومودتها لك، سوف تعود إلى بلادك ذات يوم، وسوف يبقى لهذه الأيام عبقها الخاص.

رجع الرسول إلى قائده، فأخبرهم أن ماسينيسا في الطريق إليهم، لكن ماسينيسا خلع ملابسه واستلقى على سريره، كان بحاجة لبعض الراحة بعد السباق الطويل والعراك القاسي الذي خاضه، استلقى قليلا ثم قام مسرعا وذهب إلى الحمام الداخلي، كان يشعر بحاجة ماسة إلى الاغتسال، لقد راقه الماء الساخن المعطر الذي أعدته الخادمة الصغيرة له، لقد كان وجودها معه مخالفا لتقاليد المدرسة، فليس من المسموح أن يكون للضابط المتدرب من يساعده ويقوم بشؤونه، فكانت مهمة تحضير الطعام وغسل الملابس والاعتناء بالحيوانات من مهمة العبيد، الذين ألحقوا بالمدرسة ولكن ليس مع الضباط، أما الفتاة الصغيرة الجميلة أنيا فقد جاءت معه بوصاية خاصة من والده الملك، وعندما يتراسل الملوك تتغير القوانين ويمكن تجاوزها مهما بلغت أهميتها،

وهكذا تكفلت أنيا بتنفيذ مهام كثيرة منها الاعتناء بطعام الأمير ولباسه والترفيه عنه، وكان الطعام الذي تعده مضرب مثل ومثار إعجاب الجميع، بمن فيهم إدارة المدرسة، وسعيد الحظ من الطلبة الضباط من يشارك ماسينيسا طعام غدائه أو عشائه، وذلك برأي الملك غايا أقل ما يجب أن يقوموا به خدمة لأميرهم الشاب، الذي يعول عليه الملك كثيرا، ولا يثق بأحد يقترب منه إلا من يشرف هو شخصيا عليه، ومع الماء الساخن ولذة الاستحمام، حيث برعت أنيا في تدليكه وفرك ظهره برغوة الصابون، ثم زادت من كمية عطر الياسمين والزيزفون في الماء، فخلقت جوا شاعريا في منتهى الفتنة والخيال، فانطلق ماسين يغني بصوت رخيم فيه من الشجن والرخامة ما يغري على الاستماع والاستمتاع، فلو أنه حمل الربابة بدل السيف، لأجاد أيضا ولوجد جمهورا كبيرا يتبعه ويعجب بأدائه، كان صوته رائعا رائقا وحزينا، يدفع السامع إلى الإنصات والتفكير، كان ماسينيسا يغني:

أيها الطير الذي ناغى على شباكي

اذهب إلى حبيبتي مدي وأعطها أوراقي

إن استطعت لا تبخل بشعرة من رأسها

أو قبلة منها انتزعها للغريب الباكي

مليكتي أنت الدواء وأنت الخمر والساقي

كان الأمير يغني والخادمة تتعمد إطالة الحمام قدر ما تستطيع، كانت الفتاة الصغيرة مولعة بسيدها، لكنها لم تقو على البوح بهذا العشق الذي لا معنى ولا أمل منه. فكان يكفيها أن تطعمه وتسقيه وتغسل ملابسه وتشمسها، وفي أحيان كثيرة كان ينام ورأسه في حضنها، أو بين فخذيها، فتشعر بسعادة تتمنى أن تطول، ولم يخف عليه أحيانا رؤية ذلك الشبق في عينيها وشفتيها. هو مزيج من الحب والعشق والأمومة المؤشدة والمطعمة بروح المسؤولية. إنها تراه مثل والدها الذي يحميها، ويهتم لراحتها وسعادتها، وترى نفسها أمه التي تهتم بصغائره، هل مشط شعره جيدا.. هل تناول شرابه.. هل وجد منديله نظيف.. مع هذا الجو الحميمي الممتع، وفي هذا الفضاء الشعري الدافئ، الذي نادرا ما يتكرر، نسي ماسينيسا موعده مع الحكم، وكان قد

صمر سبق بعد حديثه مع المرسول الثرثار أن يؤخر
دهيه قليلا. ولكن ليس إلى حد التجاهل التام.

أبدى القائد صدربعل انزعاجه الشديد من الانتظار
غير المجدي. وهو الذي لم يعتد على مثل هذه المواقف،
فالجميع يتحركون بإشارة من سبابته، وهو هنا ينتظر
أميرا نكرة يحسب نفسه أنه هانيبعل، فقال لمدير المدرسة
بصوت مرتفع: يبدو أنك يا كبير الضباط عاجز عن
السيطرة على جميع طلابك، أو ربما يجدك هذا الأمير
النوميدي غير جدير باحترامه وتقديره.

احمر وجه المدير لسماع هذه الإهانات المتتالية، ولم
يجد ما يقول، فكل كلمة ستخرج من فمه عليه أن يفكر
فيها مليا، وإلا سوف يفقد منزلته ووظيفته، فقام من
مكانه بعد أن استأذن ضيفه وخرج مسرعا إلى إقامة
ماسينيسا، وكان يستشيط غضبا وسخطا، فقطع المسافة
الفاصلة بين إقامته الإدارية وإقامة الضباط في دقائق
معدودة، ولم يشعر كيف اختصرها فقد كان يشتعل من
الحنق، وعندما وصل إلى غرفة ماسين وجده عند الباب
في أبهى وأجمل حلة وصورة، فشعر بالخجل من نفسه

ساعة حياه الشاب الفارس قائلا: تفضل بالدخول يـ
سيدي، وفتح له باب الغرفة، وهو يرسم ابتسامة رضا على
وجهه، فوجئ المدير من الموقف الذي وجد فيه نفسه، فقد
جاء ناقما غاضبا، ولما شاهد ماسين بشبابه وفتوته
وسلاحه، لم يتمكن من إخفاء النقص الذي شعر به أمام
هذا الرجل، لقد كان أميرا بحق وعليه مهابة الملوك، وهو
الآن الحائر المتوتر، فقد انتقل القلق إليه، ويشعر أن ماسين
أخذه على حين غرة دون أن يتعمد ذلك.

بلع المدير ماتان ريقه، وقال بهدوء مصطنع: قد كنا
بانتظارك، والجميع متشوق للتعرف عليك، ويسرني أن
أخبرك أن القائد العام لفرسان قرطاج صدربعل
جيسكو يرغب في التعرف عليك شخصيا، وهو لم
يصنع ذلك إلا بعد الأخبار الرائعة التي سمعها عنك.

قال ماسينيسا: يسعدني سماع ذلك يا سيدي، وأنا
أيضا أرغب بلقائه والتعرف على سعادته، فقد سمعت
عنه ما يكفي من أنباء طيبة ورائعة.

قال ذلك وهو يشعر أنه بدأ ينافق.

قال المدير: إنهم يتمنون لو أنك من أمـراء قرطـاج، ربما ساعتها قد ينصبونك عليهم ملكا.

هز ماسينيسا رأسه موافقا، وكأنـه أراد أن يقـول لا يسعدني ذلك، فقد سمعتها من الثرثـار قبلـك، ولأنـك كاذب لا يسعدكم أن أكون منكم ولكنه المال أيها المـدير المنافق، وقد رأى ماتان هذه العبارات مكتوبة على وجـه ماسينيسا وربـما قرأهـا أيضـا، ولم يـرتح الفـارس لهـذا الإطراء الزائف، وهـو الـذي يكـره التزلـف والنفـاق، ويعرف تماما أن القرطاجيين لا يحبونه ولا يرونه واحـدا منهم، إنهم يرون أنفسهم أكبر وأهـم مـن النوميـديين، وكان الإغريق ومن بعدهم الرومان من مسببات التـوتر والشقاق بين الأمازيغ والفينيقيين، رغم التقارب الكبير بينهما، وقد تشبع ماسينيسا بعادات الإغريـق، ولم يخـف يوما إعجابه بهم، فقـد كـان زيـه ولحيته وقصـة شـعره إغريقية، لقد عـاشرهم وتعلـم علـى يـد فلاسـفتهم، في الإسكندرية وغيرها، وتشرب ثقافتهم وفتن بها، ثـم إن الرومان بدورهم يتعاملون مع النوميديين كمخلوقـات زائـدة عـن الحاجـة، ويتهامسـون بيـنهم أمـام زعـماء

الأمازيغ ورؤوسهم أن هؤلاء لا يصلحون إلا للزراعة والخدمة.

لما دخل ماسينيسا على القائد صدربعل جيسكو كان هذا يستعد للمغادرة وهو في منتهى الحنق، وقد ظهر الاستياء واضحا على محياه وفي وجهه الأحمر ورقبته التي أضحت غليظة على غير العادة، أما عيناه فكانتا أكثر شبها بعيني ذئب جائع نال منه التعب والهرم، فلم يجد ما يأكله فقام يعالج لحاء الأشجار وجذورها ملاحقا الصراصير المحتمية بها، لقد كان صدربعل على وشك الانفجار، بل إنه كان قبل أن يفتح ماسينيسا الباب يتوعد ويتهدد ويزبد، ولولا الحياء والخجل بسبب وجود ابنته وخادمتها، لكان بالغ في السباب والشتائم، وما أن وقع بصره على ماسين حتى رأى وجها جميلا بلحية شهباء، وعينين عسليتين فيهما من الفطنة والذكاء ما يكفي ويزيد، كان وجهه حسنا ومألوفا، يعلو رأسه شعرا بلون الخروب مثل يد بيضاء لفحتها الشمس، مد يده فتصافح الرجلان، كانت يد أحدهما باردة ومستكبرة والآخر حارة قوية، فتعمد ماسين أن يشد على يد

العسكري المخيف، ولم يجده في واقع الأمر مخيفا ولا أسطوريا، وإنما هو رجل كان مغطى بالجلد وبعض النحاس، فبادله هذا شدة أخرى لسان حالها يقول: نحن من يعرف متى وكيف نقهر، ولم يستوعب القائد صدربعل من بعد كيف أنه لم يتفل في وجه ماسين، أو على الأقل يوبخه ويبالغ في إهانته، وهو الذي يعتقد أن ماسين بادر بالإهانة ساعة تأخر عن موعد الجميع يتمنون مثله، وفيهم من يحلم أن يجالس القائد صدربعل فيذهب بعدها متفاخرا بأنه كان صحبة أحد أكبر قادة قرطاج وفرسانها المبجلين، فجاء هذا النوميدي "منتوف الريش" لكي يقلب كل تلك الاعتبارات.

لقد أعد له أكثر من ذلك، لما همس في أذن ابنته أنه سيلكمه على أنفه الأفطس، فقالت: هب أنه ليس بأفطس، فقال، إذن سيكون دقيقا مثل خياشيم الرومان، وابتسما معا لظرافة التشبيه، قال، ساعتها سأجعل أنفه أفطسا، لكن عندما وقع بصره عليه، حدق فيه جيدا متمثلا دور أم العريس التي تبحث لولدها عن عروس لا مثيل لها في الحسن والجمال، أو كفلاح يعاين

أفضل خروف يرغب في شرائه، فلما رآه وعاينه، تيقن وعرف أن له أنفا جميلا ليس بأفطس كالعبيد الأفارقة ولا بدقيق كتجار الرومان، وقتذاك نظرت صوفونيسبا إلى والدها وابتسمت فلاحظت الارتباك الذي هو فيه، فرسمت على وجهها بعض مظاهر الرصانة فازدادت بذلك جمالا وفتنة وإثارة، وهكذا عندما تصافحت يد الرجلان تبخرت كل استعداداته العدوانية والقتالية المفترضة، لقد بهت بلطافة الفارس المازيلي، ومع ذلك عندما تحدثا وجد نفسه أمام رجل في سن الشباب، بذل كثيرا من الجهد والعمل لكي يعلم نفسه ويرفع من قيمتها، لقد جمع العلم والأدب إلى الفتوة والفروسية، وتلك من صفات القادة الكبار، الذين لا يهملون الفلسفة والفكر مع علوم الحرب، فتيقن أن سيكون لهذا الشاب شأنا عظيما في المستقبل، ومن الأجدى والأجدر أن يكسب ثقته، فلا بد أن يكون ذات يوم ملكا على قومه، ومن مصلحة قرطاج أن تكسب مزيدا من الأصدقاء.

وبعدها بأيام ظل يقول في نفسه ويردد كيف أني لم أنهره، ليتني على الأقل صفعته أو لم أصافحه، لقد باغتني ذلك الأمير الفارس، ومن المؤسف أنه انتصر علي.

كانت قاعة الاستقبال كبيرة واسعة وأنيقة، أرضها من الفسيفساء التي غلب عليها اللون الأحمر، بينما كانت المقاعد الخشبية والحجرية في غاية الفخامة، كانت مثل قاعة الملك غاي وربما أبهى وأجمل، فقد غطوا المقاعد بفرش من القطن المحشو داخل أقمشة من الحرير الأزرق الفاتح والأخضر العشبي، أما الجدران فكانت عبارة عن لوحات فنية غاية في الجمال والإبداع، لقد أبدع صاحب المنمنمات في زخرفتها، واجتهد صاحبه الآخر في نقش الخشب وتزويقه، وقد تدلت من السقف شمعدانات نحاسية وفضية، أعطت للمكان طابعا أرستقراطيا فاخرا، يدل على هوية صاحب المكتب ورفعة مكانته.

لم يرفع ماسينيسا عينيه أثناء اللقاء عن محدثه صدربعل، وكان قبل ذلك قد صافح الأميرة الحسناء صوفونيسبا؛ وهي في الحق لم تكن أميرة وإنما من علية

القوم وأعيانهم، وأكثرهن بذخا وإسرافا في الجمال والأناقة والرشاقة، لقد صدمه جمالها ورقتها، لقد خطفته من أول وهلة فلم يصدق أنه يقف أمام أنثى من الأرض، لقد كانت غير كل النساء، وكان في صوتها رنة إثارة لم يتمكن من نسيانها طيلة حياته، لقد سكنته وتمكنت من قلبه وعواطفه، لذلك آثر ألا ينظر إليها طيلة تلك الجلسة فلم يجد في نفسه ما يكفي من المقاومة أمام هذا الجمال الجارف والخاطف.

كان صدربعل لطيفا مع ماسينيسا على غير عادته مع الطلاب العسكريين، بينما كان يقوم الساقي بتوزيع كؤوس الشراب على الحضور، تناول صدربعل الكأس من يد الساقي وقدمه إلى ماسينيسا، وكان ينظر في عينيه مباشرة، فسأله: لو تأخرت الحرب بين قرطاج والرومان، ولم تحسم عن قريب فأين تجد موقعك أيها الأمير الفارس؟.

تناول ماسين الكأس، ثم وضعه على شفتيه وأخذ رشفة صغيرة، ثم أمسك الكأس النحاسي بين يديه آخذا بتدويره كأنما يعاينه، وقال: إن قلبي يميل إلى

وطني، وإن عقلي يميل إلى قرطاج، ومهما يكن فلن أرفع سيف العداء مع أحبة لي.

ظهرت الحيرة وعلامات الارتباك على وجه مدير المدرسة، فليست هذه بالإجابة المثلى التي تقال لقائد مثل صدربعل، فقال محاولا ترطيب الجو والتخفيف من حدة الموقف: لعل الأمير الفارس يقصد أنه سيكون معنا قلبا وقالبا؟. قال صدربعل: لم تفاجئني إجابتك، بل أعجبتني كثيرا، وكنت أتوقع مثلها من فارس جالس العلماء والفلاسفة.

قالت صوفونيسبا بصوت أنثوي جذاب، أثار الشجن في قلب ماسين: إن فارسنا مع وطنه وليس أروع من هذا الشعور، لكنه بالمقابل سوف يقف مع عقله إن اختلف مع هواه وعشقه.

ابتسم ماسينيسا لهذا التفسير الرقيق، الذي اعتبره تخريجة جميلة منها، حيث أرضت الجميع، وعندما أراد أن يشكرها، وجد عينان رائعتان تنظران نحوه مع ابتسامة عذبة أقسم لوالده بعدها أنه لم ير مثلها في

حياته، فاكتسى وجهه الأبيض بلون الشفق الخمري الذي يلف سيرتا عند الغروب.

لقد أخجلته وأحرجته بلطفها، وعندما شعرت الحسناء بخجله انتقلت العدوى إليها أيضا، وكأن الحب بين الشابين ولد في تلك الجلسة على غير موعد، وقد لاحظ والدها ذلك الانسجام اللوني بينهما، فلم يعجبه ما يرى، فقام من المجلس مستأذنا، بعدما اتفق مع ماسينيسا أن يزوره في منزله.

في المساء لاحظت الخادمة الصغيرة تغيرا طرأ على سيدها، فقد دخل البيت وهو يغني فألقى عليها التحية، ثم انصرف في شرود عميق، وقد ظنته نائما، فلم ترغب في إزعاجه لتناول العشاء، ولم يكن من عاداته أن ينام في غرفة الجلوس، فقامت إلى بعض حاجاتها وهي تود الاطمئنان على سيدها، فشاهدته واجما سارحا في عالم آخر، فأصدرت بعض جلبة علّه يلتفت إليها لكن دون فائدة، فاقتربت منه قائلة سيدي، إن طعام العشاء على المائدة فهل تحتاج شيئا آخر؟.

لم يجبها بل ولم يلتفت إليها، فتأكد لها أن هذا الأمير الشاب على وشك المرض، فاقتربت منه أكثر ولمسته من يده، وقالت وهي ترسم ابتسامتها الوادعة التي يحبها: ألن تقوم إلى طعامك يا مولاي؟.

كانت إجابة ماسينيسا كصاعقة وردية نزلت على رأسها، فقد اختطفها ورفعها بين ذراعيه، كأنه يحمل قطا صغيرا، ورسم على شفتيها قبلة خاطفة، وقال: أنت اليوم أجمل من نجوم السماء يا أنيا.. يا لك من امرأة رائعة كيف لم أنتبه لكل هذا الجمال.

أفلتها من بين يديه وقفز كالغزال، وأسرع إلى الطعام، لكنها تمنت أن لو دامت تلك القبلة حتى الصباح، وبينما هو يتناول طعامه كانت تراقبه خلسة، ورغم الفرحة العارمة التي شعرت بها وملأت كيانها، إلا أنها بما تمتاز به المرأة من حدس وبإحساسها الذي لا يخيب ولا يخدعها، وأيضا بخبرة المرأة المجربة، عرفت أن سيدها الذي كانت تخدمه ثم وقعت في حبه، قد وقع هو الآخر في الحب، إنه عاشق.

كان يأكل وهي تراقب وتتساءل، من هي المرأة المحظوظة التي استولت على قلبك يا سيدي وشقيق روحي وكل كياني، كيف وقعت في حبها بمثل هذه السرعة، لقد كنت اليوم بين ذراعي أفرك ظهرك ورأسك وأغسلك بمائي المعطر، فهل ستجد امرأة أخرى تقوم أفضل بما أقوم به؟. قال ماسينيسا: أين وصلت يا امرأة، أراك تنظرين إلي وتتابعين حركاتي كما يفعل قط مخادع مع فأر سمين، فأينا القط أيتها المرأة الجميلة. قالت والفرحة تتسع على وجهها: هل تراني جميلة حقا يا مولاي؟.

قال بهدوء ورغبة: وهل تشكين بجمالك ورقتك يا وردة البيت، أتعرفين لولاك لما استطبت الطعام والشراب والنوم، لقد ملأت علي البيت، ومن الحق والعدل أن أشكرك على ذلك دائما.

تكدرت قليلا، وهي تهمس لنفسها، هذا كل شيء يا حبيب الروح، إني على استعداد لأن أفتديك بنفسي وعيني وكل أهلي، ولا أظنك تشعر وتحس بما ينتابني، لقد كانت نار العشق تحرقها، وكانت سعيدة بقربها منه، لكنها أبدا لن

تسمح لامرأة أخرى أن تحتل مكانها، فهي سعيدة بخدمته ولا تطلب أكثر من ذلك.

أفلت من فمها سؤالا لم يعره سيدها الاهتمام الكافي، سألت بصوت خفي يفوح بالرغبة والإثارة: هل يمكنك الاستغناء عني يا مولاي؟.

قام ماسين عن المائدة، واتجه نحو حديقة المنزل، قال وهو يغادر: طالما كنت هنا، فلا يمكنني البقاء ليوم واحد بدون أنيا، أرسل ضحكة محببة وهو يستلقي على مقعد حجري في الحديقة.

كانت غيمة صيفية سوداء تسبح في عمق السماء، ولما اقتربت من القمر حجبت أشعته فالتمعت الغمامة وتوهجت فيما انسحب القمر ببطء وجاذبية، حتى ضربت العتمة غشاء واهيا على الأرض، كان ماسين يراقب وقد اشتغل ذهنه في حلم يقظة هو الجديد عليه، لم يعتد أن يشغل باله وعواطفه بأحلام الفتيان، وخاصة أنه لم يكن يعاني أي فراغ عاطفي يدفعه لذلك، وبينما هو في حالة الفوضى تلك، كانت عينا أنيا تراقبان الحبيب متمنية أن تلتهمه، وهي أعلم الناس أن لا أمل في هذا الحب

سوىٰ القرب منه، فلن تكون أكثر من خليلة وهي أسعد الناس بذلك، ولكنه لم يقبل لها هذه الوضعية، فاتخذت قرارا جريئا بمهاجمته من حيث يحب الرجال ولا يقوون علىٰ المقاومة.

في الأثناء هبت نسمة عليلة حملت رائحة الياسمين وأزهار النارنج وألقتها بالقرب من ماسين الذي ظن لوهلة أن الغمامة المشعة التي تخفي القمر وراءها تشبه إلىٰ حد بعيد صوفونيسبا، بابتسامتها ودلالها وأناقتها، وأغرته الأفكار الجميلة والخيالات الباهرة التي بدأت تترءاىٰ له، فانساق معها وذاب في لذتها، وأدرك أنه وقع في الحب، فتساءل وهو يراقب انسحاب الغمامة البطيء: هل عشقت، يبدو أني قد وقعت في هوىٰ تلك الفاتنة القرطاجية؟ يا لها من امرأة، يا لها من جنية عذبة المذاق، فهل يكتب لي أن أتذوقها؟.

هز رأسه بعنف كأنما يطرد من رأسه أفكارا شيطانية، فمن غير المعقول أن تمكنه من تذوقها، صحيح أنه أمير وابن ملك، ولكن بالمقارنة إلىٰ منزلتها فهي ابنة أحد كبار قضاة قرطاج التنفيذيين، أي ابنة امبراطور صغير، ومع

ذلك همس لنفسه: وهل أنا أقل من ذلك شأنا، تبا لي يبدو أنها اخترقت لب عظامي، ولا أشك أنها وقعت بي هي الأخرى، راقت له هذه الفكرة وأحبها، وعاد للتساؤل: ولكن هل تبادلني نفس الشعور، من المؤكد أنها أغرمت بي أيضا، لقد لاحظت ذلك في عينيها، نعم لقد فتنتها كما فتنتني.

تكررت زيارات ماسينيسا إلى بيت صدربعل جيسكو وتوطدت العلاقة بين الشابين، واستعرت جذوة الحب والعشق في قلبيهما، ولم يكن صدربعل سعيدا بذلك الحب، ولم يرحب به، لكنه وجد نفسه مضطرا لقبوله والسكوت عنه، وكتمان مشاعره المعادية لغايا وولده، رغم أنه كثيرا ما كان يقول ممازحا: سوف نذهب سويا إلى هسبانيا أيها الأمير، وآمل يومها أن أجدك معي دوما، فيرد ماسينيسا بأنه سيكون سعيدا وله كل الفخر والشرف أن يقاتل تحت راية قرطاجنة إلى جانب قادتها العظام هانيبعل وصدربعل، فيشعر لحظتها العسكري القرطاجي بالغبطة والفرح، عندما يقترن اسمه مع أهم قادتها.

لم تكـن كراهيتـه ونفـوره مـن ماسينيسـا لسـبب شخصي، أو لشيء يكرهه في الأمير، فليس بينهما إلا كل التفاهم والود والاحترام، وإنما هي حساسية مفرطة عند صدربعل من النوميديين عموما، جعلته لا يطيقهم ولا يرغب في عشرتهم، لقد كان يصفهم دوما بأسوأ النعوت فيقول، أن لا وفاء عندهم ولا إخلاص لهم، وقد قالها أمام ماسينيسا أكثر من مرة، عندما كانوا يتحدثون عن الحروب المتواصلة مع روما، إذ قال: النوميديون قوم لا يمكن الركون إليهم، فسرعان ما يخدعونك ويبيعونك إلى أول مشتر، وقد تجاهل ماسين ملاحظاته تلك، كأن لم يسمعها، لكنه سأله ذات يوم بعدما أكثر من إهانة أبناء قومه: ألم تلاحظ أيها القائد أنك تكثر من توجيه الانتقادات والإهانات للنوميديين دون سبب يذكر، صمت قليلا ثم تابع، ولم أسمعك تتحدث عن أسباب هذا الكره والسوء الذي تكنه للنوميديين؟.

فوجئ صدربعل بالسؤال، فأربكه قليلا، وقال وهو يخفي توتره: إني لا أثق بهم، ولا أقصدك أنت، فلست

مثلهم على أية حال، وليس الجميع على نفس الشاكلة، فأنا أعتبرك واحدا منا، ولا يمكنني أن أراك إلا من أبناء قرطاجنة الأوفياء.

همس ماسينيسا في سره، ليس وأنت ترانا على هذه الصورة البشعة والمخجلة، لكن جميع قضاة قرطاج ومعهم صدربعل يدركون أنه لا يمكنهم الاستغناء عن الأمازيغ جيرانهم، سواء في الحرب أو في السلم، فقد كانوا جنودا أشداء قاتلوا إلى جانب قرطاجنة في جميع حروبها، وكانوا في أوقات السلم من الفلاحين والتجار المهرة، الذين تعلموا منهم فنون الزراعة والصناعة، لقد كانوا بالنسبة لقادة قرطاجة مثل أبناء العمومة.

ذات يوم كان الحبيبان ماسينيسا وصوفونيسبا يتجولان في حديقة القصر، فشعرت صوفونيسبا بالإعياء بعدما تسابقا معا، أمسك ماسينيسا حبيبته من يدها وحملها بخفة، ثم أجلسها على مقعد كان بالقرب منها، وجلس هو على تلة معشوشبة صغيرة تطل على البحر مباشرة، فقامت من مكانها وجلست بجانبه، لقد كانت الأمواج الناعمة الهادئة تتموج من حولها،

فتشابكت أيديهما تحت شجرة ورد كبيرة، نبت إلى جانبها شجرة خميلة وشجرة مسك الليل، فتعطر الجو المسائي برائحة نفاذة مسكرة، وكان لنسائم البحر العليلة الباردة مفعولها السحري في تماسك الحبيبين، كانا يبحثان معا عن الدفء اللذيذ، أو لذة القرب، فانسابت الحسناء تحت ذراع حبيبها وتسللت يدها تحت ياقة قميصه، باحثة بين شعيرات صدره الدافئة عن بعض ود ومتعة، فضمها إلى صدره بقوة وحنان، وأخذت يده تتجول بخفة القط بين كتفها ورقبتها وشعرها، ثم غمر أنفه في رأسها، فوجد رائحة لم يعرفها من قبل، لقد امتزجت فيها روائح مختلفة، كان أقلها كافيا ليثير فيه كل مشاعر الفحولة والرغبة في امتلاك الحبيب، رائحة أنوثتها امتزجت برائحة العطر والمسك والليل والزيت، فشدها إليه أكثر وألصقت جسمها فيه أكثر، ثم انزلقت يده إلى صدرها، فأحس بحرارة ناعمة طرية وبضة، وتمادى في الدخول والاكتشاف، كان انسيابا شفافا لذيذا، كانت تتمناه وتعشقه بكل جوارحها، فما لبثت أن تعانقت الشفاه وتشابكت

الأيدي، استلقيا معا على العشب الندي، كان صدرها يعلو ويهبط، زحفت فوقه وأطبقت صدرها على صدره، وأمعنت في سحقه، فانقض بيده على يدها وكتفها وأمسك بالجزء الأيمن من صدرها، كان نهدها المكور اللاهث تحت سطوته، فمكنته من كل شيء، لقد أحرقته أنفاسها، التي امتزجت مع أنفاسه الملتهبة، كانت تلك أمسية حب لم يعشها ماسينيسا بعد ذلك، ومن المؤكد أنه لم يعرف مثلها من قبل، لقد انصهرا في العشق، وتلك الساعة اكتمل بينهما الحب.

لم يلبث ماسينيسا بعد ذلك إلا فترة قصيرة، توجه بعدها إلى نوميديا، حيث كان عليه أن يقود كتائب من الفرسان النوميديين إلى هسبانيا، ومن قال إن آلة الحرب الجهنمية تشبع من سحق الرجال وطحنهم، لقد سقط الآلاف وسوف يسقط بعد ذلك آلاف كثيرة، في حرب تفتقد إلى الهوية والجنسية، ولكن هدفها واحد، من سيمرغ أنف من في التراب؟ هل يحتل هانيبعل روما ويكسر شوكة اللاتين، أو تصمد روما وتدحر فيلة قرطاج ثم تحتلها بعد

ذلك؟ من يدري كيف تسير هذه الحرب وكيف قدر لها أن تنتهي؟.

ودع ماسينيسا والده وأحبابه، وانطلق نحو البحر حيث كانت سفينة القائد صدربعل جيسكو بانتظاره.

ليس للطريق البحري نحو شبه الجزيرة الإيبيرية أية ملامح، أو علامات رؤيا واضحة، فقط هو الماء الذي يربط الجهة الجنوبية بالجهة الشمالية، التي يراها ماسينيسا الواقف بين فرسانه أشبه بالحلم، وعليه أن يمشي فيه بكل قوة وثبات، حتى يفرض نفسه في مملكته قبل غيرها، وهي أمنية طالما تمناها، فجاءته تمشي لوحدها، ومن هو القائد أو العسكري الذي لا يتمنى أن يعمل ويقاتل إلى جانب وتحت راية أعظم قائد عسكري على الأرض، لقد كان يستعجل مثل هذه المناسبة، فلما وقعت خطبته على صوفونيسبا، تضاعف شوقه، وكبرت همته، فهو من جهة سيحارب إلى جانب هانيبعل، ومن ناحية ثانية يسره كثيرا أن يرضي حبيبته فتشاهده في موقف يتمناه معظم فرسان قرطاجنة،

فتحدث صويحباتها عنه، وتقول ذلك الأمير النوميدي حبيبي.

ركب السفينة إذن، وفي قلبه تموج الأحلام الكبيرة وتضطرب، كأنه النورس الذي يراقص سمكة قبل أن يبتلعها، أو الطفل الذي يحتضن فراشته الملونة ويتوق لربيع لا تنام شمسه ولا يخبو عبقه، ولكن الأحلام كلها لا تتحقق دفعة واحدة، وأحيانا يتحقق منها الذي نكرهه ونحاول الهرب منه، كما أن الأقدار كانت ترسم له خطى أخرى غير التي تمناها، بل لم تكن لتخطر له على بال، وكان عليه أن يمشيها طائعا ومكرها ومغتصبا.

لقد غادر مدينة أبيه وهو على دين قرطاج، وكان سعيدا بهذا الانتماء وتلك التبعية الرقيقة، فعاد إليها وهو على دين روما، فقاتل مع هانيبعل لفترة من الوقت، ثم ساهم في دحره ومقتله، أليست تلك من أحاجي التاريخ العجيبة؟.

التحالف الهش

كان لحادثة الضبع الذي كاد أن يفتك بهما، تأثيره
البالغ في حياة صيفاقس، كما أحدثت تغييرا وتحولا هاما
في خططه المستقبلية، رغم أنها حادثة عادية قد تقع مع
كثير من الناس، غير أن صيفاقس كان من المتطيرين
الذين يؤمنون بفاعلية يد الغيب في حياة البشر، ومن
يخصه فقد اعتبرها رسالة واضحة جلية لكي يغير من
خططه جميعا، بل غير حتى من تحالفات مملكته، فعدل
عن رأيه مثلا في قتال القرطاجيين، فلم يكونوا أعداءه
على أية حال، ولم يكن لروما أية فضائل عليه حتى
يخضع لها ويتبعها أيضا.

وإذن تمكن الضبع الإفريقي من إلحاق أذى بالغ به،
فتركت آثار أنيابه علامات وندوب رافقته طيلة حياته،
عاد سيفاو بابن عمه الجريح وهو يؤنب نفسه ويلومها،
ويحملها مسؤولية ما حدث، وهو يعلم أن الوقت ليس
في صالحهما، وعليه أن يتصرف بسرعة، ومن حسن حظ
صيفاقس أن سيفاو على دراية واسعة بالتطبيب
والجروح، ولولا ذلك لقضى حتفه قبل أن يصلا إلى

أقرب منطقة آهلة، فقام بإسعافه وإيقاف نزيفه، واستعان بخبرته في الحشائش والنباتات الطبية، ثم انطلق باحثا عن ملجأ يأويهما وخاصة أنهما خسرا كل متاعهما.

كان صيفاقس محموما يهذي، ولم يتوقف عن ترداد اسم أمه أثناء غيبوبته، يتفصد العرق البارد من جسده، وهو بالكاد يستطيع أن يركب حصانه أو يتناول طعامه ويقضي حاجته، فرأى أنه من غير المعقول أن يزيده إرهاقا بالتنقل، كما أنه لن يحتمل عناء ومشقة العودة إلى سيغا، فسوف تزهق أنفاسه قبل الوصول إلى الديار البعيدة، كانا يومها على أبواب قرطاجنة من الجهة الجنوبية، على مقربة من مدينة تيفست "تبسة"، فقام بإشعال نار عظيمة على شكل دائرة، ثم وضع الأمير المحموم في وسطها بعدما دثره جيدا، وهكذا اطمأن عليه من شرور الوحوش، وانطلق مسرعا نحو أقرب مرتفع، وهو يرجو أن يجد أملا من بعيد يمكنه اللجوء إليه، وكانت خطته ناجحة ومقبولة، فقد شاهد من بعيد أضواء تنبعث من أماكن متفرقة، فأيقن أنها تعود لمضارب البدو الذين يشعلون النيران ليلا كي يستدل

بها الغريب المسافر، ويلجأ إليهم عابر الطريق التائه والمحتاج، فعاد إلى ابن عمه وحمله على جواده، وسار نحو تلك المضارب فرحبوا به وأكرموه واعتنوا بمريضه، ولم يسألوه عن نفسه وإنما تركوا له أن يقول ما يشاء، وقد علموا أن المحموم تعرض لعضات قاسية، فتم إسعافه والعناية به، فلما تأكد سيفاو من تعافيه، وعادت إليه القوة والقدرة اقترح عليه أن يعودا إلى الديار، لكن صيفاقس أبى وامتنع، وكانت حجته أنهم طالما عجزوا عن تحقيق ما جاؤوا من أجله، فعلى الأقل يمكنهم دخول قرطاجنة والتجول فيها ومعرفة أحوالها، دون أن يعرفهما أحد.

قال سيفاو: لن تتخل عن عنادك أبدا، ولكني أوافقك الرأي وعلينا أن نستفيد من هذه الفرصة، وهكذا استغل فترة تعافيه، فذهب خفية إلى قرطاجنة مرتين، فأعجب بها وفتنته، وأقام علاقات جيدة مع بعض أهلها من النوميديين، وأثناء عودته إلى سيغا عرج أيضا على مدينة هيبو ريجيوس، عنابة، التي كانت عاصمة للمملكة الشرقية، وقد حدثته نفسه أن يذهب

إلى ملكها، غير أن سيفاو نهاه عن ذلك، بعدما خوفه من إمكانية أن يأسرهما أو يقتلهما ملكها غايا بن أيليماس، لكنه استفاد من هذه الزيارة كثيرا، فقد رسم خطة ماكرة للنيل من ملكها، فاستخدم الذهب للوصول إلى قلب أحد ضباط القصر، فأعلن هذا ولاء مطلقا لأمير سيغا، وأخذ يزوده بكل ما يريد معرفته عن نوميديا الشرقية، فبات بعدها صيفاقس يعرف أدق تفاصيل ليس ما يجري في المدينة فقط، وإنما عرف أيضا تفاصيل قصر ملكها غايا، ودامت تلك العلاقة التجسسية بينهما لمدة طويلة، ولم يبخل على جاسوسه المسمى أدرف، فأغدق عليه كثيرا من المال، وقبل أن يغادره قطع له صيفاقس عهدا، أن يستقبله في مملكته إن ساءت الأمور معه أو افتضح أمره، وفي المحصلة، تمكن صيفاقس من الترتيب لخطة ماكرة، سوف تجعل الملك غايا وبقية أفراد أسرته يبكون ندما على ما بدر منهم من سوء بحق المملكة الغربية، وليس أشد على الملوك من الطعن في شرفهم أو التعدي على أعراضهم، وهو ما سوف يفعله، رغم أنه لم

يكن متيقنا من كل ما سمعه، لكنه لن يكذب والده ليصدق غيره.

أبدى صيفاقس اهتماما بالغا لمعرفة أخبار وأحوال الملكة، كان يهمه أمر هذه المرأة كثيرا، قال وهو يعطي ظهره لرجله في قصر غايا أدرف بن سوف: أخبرني بكل شيء تعرفه عن الملكة، أريد معرفة كل شيء؟.

قال الضابط أدرف: الملكة ..إنها امرأة رائعة الجمال، فائقة الحسن رقيقة طيبة، واسمها على أية حال الملكة تيفاني ساليس، وهي للحقيقة مثل اسمها، أي لها اليد الطولى في الخير، وهي صاحبة خير وفضل على كثير من الناس، وتقيم مأدبة عامرة كل أسبوع تدعو إليها كل ذي صاحب حاجة وفقير وغريب.

شعر صيفاقس أن الرجل استطاب مدح الملكة، وربما كان معجبا أو مغرما بها، فقاطعه قائلا: تلك أشياء يعرفها عامة الشعب، وقد سألتك عما لا يعرفه سواك.

قال بارتباك: أجل يا سيدي لك ذلك، إنها ليست على وفاق مع زوجها الملك، رغم أن حبهما كان حديث المملكة ذات يوم، فقد اكتشفت أنها تنام في مخدع بمفردها، ولديها

وصيفة تدعى سيلين، لا تقدر على مفارقتها أو التخلي عنها، حتى بت أظن أنها تعشقها.

سأل صيفاقس: اصدقني القول يا أدرف، هل تعشق ملكتك.. إن كل ما فيك يوحي ويثبت أنك تهيم فيها حبا، فهل أصبت في ظني؟.

ارتبك الرجل مجددا وصعدت الحمرة إلى وجهه، فقال وهو يشيح بعينيه عن وجه محدثه: تعجبني فيها أشياء كثيرة لكن ليس إلى حد العشق، ومع ذلك لا أعتبرها ملكتي يا مولاي، ولن تكون يوما.

قال: أف ولم هذا الإنكار، لا تقل إنك أحببتني قبل أن تراني، وأن إخلاصك لي كان أمرا قدريا.

قال: لا يا مولاي، ولكني نشأت يتيما، والفضل في يتمي يعود إلى الملك غايا الذي حرمني من والدي، بسبب رعونته أثناء الصيد، فقد كان والدي يعمل في صفوف حراسه، وكان لزاما عليه أن يرافق الملك في حله وترحاله، وبينما كان الملك غايا يصطاد الظبية أرسل بوالدي نحو حتفه، رغم مرضه، فقد أصر عليه أن يرافقه في ذلك اليوم

البارد الممطر، وكان مصاباً بذات الرئة، ولما عاد من رحلة القنص كان أبي قد مات.

سأل كمن يستدر عطف الآخرين عليه: ألا يحق لي بعدها أن أحقد عليه وعلى أسرته، وعلى كل ملك ظالم، وأتمنى له الشر وسوء العاقبة، صمت الرجل وهو يغالب دمعات سقطت من عينيه، وتابع: كنت كلما رأيت أمي تستجدي وتغالب من أجل إطعامنا، أكاد أنفجر من الغضب والغيظ، إنه الظلم يا سيدي الذي لا يمكن احتماله والصبر عليه.

اطمأن صيفاقس كثيراً إلى هذا الضابط، واعتبره من رجاله الأمناء المخلصين، فقد تبخر ذلك التحفظ الذي كان يحتفظ به تجاهه، بعدما عرف أن ما يسديه من خدمات لم تكن بدافع المال، وإنما لأسباب كان يرى أنها عادلة وضرورية، فمن حق الولد أن يأخذ بثأر أبيه، مهما طال الوقت. قال صيفاقس لكي يبدد آخر شكوكه: لكن الملك غايا لم يكن بمثل هذا السوء؟. قال باستنكار: بل إنه السوء بعينه.

قال: وهل كان الأمير ماسين سيئاً مثل والده؟.

قال: لم أقل ذلك، ولا يمكن لأحد أن يزعم بذلك، لقد كان الأمير ماسين وأمه الملكة من أنبل الناس وأكثرهم لطفا وعراقة، الجميع يحبونه ويقسمون حتى باسم الملكة، ويعتبرونها أمهم المقدسة.

ذلك ما كان صيفاقس يرغب في معرفته والتأكد منه، لقد كانت بالنسبة إليه مسألة ضمير، وعنده رغبة جارفة في عمل أشياء بشعة كثيرة، غير أنه كان يبحث عن دافع ومبرر أخلاقي يسمح له بذلك.

زار صيفاقس بعدها مدينة روسيكادا، وعلى حدود المملكة الغربية وفي مدينة صلدا، بجاية، توقف برهة من الوقت، تمكن خلالها من نسج علاقات تآمرية مع حاكمها أزرو بن أمغار، فقد اشترى ولاءه ووعده بمزيد من الأراضي إن هو وقف إلى جانب سيغا في حروبها المقبلة ضد أعدائها، فلما سأل عن هؤلاء الأعداء ومن يكونون، قال صيفاقس كالرومان مثلا أو أيا كانوا، أبدى الحاكم استعداده المطلق للتبعية، كان يعتقد ساعتها وهو يصغي للأمير أن صيفاقس أصيب بلوثة في عقله نتيجة جراحاته، فمن السهل أن تؤثر

عدوى الجوارح والوحوش على العقول والأبدان، وإلا كيف سيقف إلى جانبه ضد الرومان، وهم حلفاء لروما كما يعرف الجميع؟. إذ لم يخطر له على بال أن التحالفات ستتغير عما قريب، وسوف يصبح أصدقاء اليوم أعداء الغد، ولما فعل ذلك سأل سيفاو ابن عمه عن سبب هذا التحول، فقال: سوف ترى ما سيحدث غدا، أراهن أنك ستفاجأ ولن تصدق. قال سيفاو: لكنك حسمت أمرك ووقفت إلى جانب هانيبعل وأيدت مغامراته العسكرية. قال: هل تؤمن حقا أن روما وشيوخها الأفاكين يسعون وراء الحرية والعدل والمساواة؟.

وقف سيفاو حائرا أمام هذا السؤال، ولم يجد ما يقول سوى أن يهز رأسه، ويتمتم: لم أفكر في الأمر من قبل.

قال صيفاقس: جميعنا كنا نظن أن روما تقاتل من أجل الحرية، ولكنها يا ابن عم تقتل الحرية وتغتالها، الشكر للرب أيور أني اكتشفت ذلك مبكرا.

تأكد سيفاو أن ابن عمه الأمير قد تحول نحو قرطاج، فبات يحدثه على هذا الأساس، وحدث أن قال له أثناء الطريق: يبدو أن زيارتك السرية لقرطاجنة قد

أثرت فيك كثيرا فعشقتها، هل أحببت تلك المدينة يا صيفاقس بن يفاو؟. لم تخف هذه الملاحظة الخبيثة عن صيفاقس، فقال لابن عمه: لست مع أحد حتى الساعة، ولكني لاحقا سوف أكون..أخبرني يا سيفاو ألم تعجب بحسناوات قرطاج؟.

تذكر العاشق حبيبته، فقال وهو يرسل تنهيدة طويلة: ليس في قلبي أي مكان لأي امرأة سواها، طفق صيفاقس بالضحك لما سمع ذلك، ثم توقف قليلا، وقال لابن عمه، أخشى أن يخرج لنا أحد الأسود هذه المرة، ثم تابع: ويحكم أيها العشاق ما أجمل حديثكم، ابتسم سيفاو للطرفة التي فهمها متأخرا.

لما وصل الأميران إلى سيغا وعلم الملك بما جرى لابنه وابن أخيه، اعتبر ذلك اليوم عيدا يحتفي به الناس، فأعطى الحرية لعدد من العبيد، وأقيمت الأفراح طيلة أسبوع كامل.

ورث صيفاقس العرش عن والده، فأمر أن يتم حفل تتويجه بشكل طبيعي وعادي بدون احتفالات ولا مهرجانات، وقد أبدى والده الملك المستقيل دهشته من رغبة ابنه، فهو لم يمت والمملكة لم تهزم، حتى يلجأ الملك الشاب الجديد إلى مثل هذه الإجراءات الحزينة، لكن صيفاقس لم يكن حزينا ولا قلقا، وإنما اعتمد طريقة للتوفير والحد من المصاريف التي لا فائدة منها، فاعتذر من والده بعدما أفهمه أنه يهدف إلى توفير ما أمكن من الثروة، ورغم ذلك وجد نفسه مضطرا لتبرير هذا التوفير، خاصة بعد أن رأى سؤالا كبيرا يرتسم في عيني والده، فاقترب من الشيخ الذي استلقى في حديقة القصر الخلفية، وقال بعد أن قبل رأسه: إنها الحرب يا أبي..إنها الحرب، وعلينا أن نخوضها.

قال العجوز: المهم أن تختار بحكمة وتعقل الجانب الذي ستقاتل إلى جانبه، فإنهم من يحتاجنا وليس نحن.

لقد نطق الملك الشيخ بالحقيقة، فإن روما المتوجسة أو قرطاجنة الحانقة، هما من يطارد ملوك نوميديا

للوقوف إلى جانبهما، وهم الآن يغازلون كل حاكم نوميدي، ويقدمون له الوعود السخية، وكان صيفاقس من الحيارى الذين يتقدمون خطوة ويتراجعون خطوة أو خطوتين، وكان كل أمله أن يوحد بلاده تحت راية واحدة، ويضع حدا للمتلاعبين جميعا، بمن فيهم بعض حكام نوميديا الذين يهرعون وراء الفتات، ويبيعون دماء رجالهم لأي مشتر يدفع أكثر، ويجيد المساومة على الرجال كما يساومون على الخيل والخراف.

وضع صيفاقس تاج الملك على رأسه، وهو المحبوب من شعبه يوم كان أميرا، وعندما ملكوه أحبوه أكثر، فباشر بسياسة إصلاحية واسعة في الإدارة والتعليم والتجارة، وضرب العملة ونظم الجيش، الذي يمكنه من تحقيق بعض طموحاته وأمانيه، لقد كان يحلم براية واحدة يحملها هو، لكنه لم يكن يدري أنه سيخسر جميع الرايات، حتى رايته الصغيرة الحمراء.

قاتل في البداية إلى جانب الرومان، ولما وصل إلى حدود قرطاجنة، تحاور مع قائدها صدربعل جيسكو الذي كان قد عاد لتوه من هسبانيا، سأله عن سبب هذه

العداوة الحربية، فلم يجد صيفاقس ما يقول سوى أنه يعمل لصالح أبناء قومه.

قال صدربعل: وهل تتمثل مصالح النوميديين ووحدة الأمازيغ في الوقوف إلى جانب العدو الروماني المشترك. أجاب صيفاقس: ولماذا يدفع الأمازيغ ثمن حرب ليست حربهم على أية حال؟.

قال صدربعل: هل تعتقد أيها الملك المبجل أن لو تركنا الرومان في حالهم سوف يدعونا في حالنا هم أيضا؟ إنكم تعرفون أيها الملك صيفاقس أن روما لا حدود ولا نهاية لجشعها وأطماعها.

قال: إذن فليكن الصلح، وبعدها سنقف جميعا ضد الطرف المعتدي، ومن يريد غير ذلك فإنه كالأطفال الذين يلهون بسلاح الكبار.

قال: إن كنت تضمن أن روما ستوافق على الصلح، وتعود بجنودها فإنني وباسم جميع قضاة قرطاج أوافق على أي مقترح تقدمونه.

أبدى الملك صيفاقس ارتياحه وغبطته لما سمعه من القائد القرطاجي، وتعهد بما يمتلك من علاقات وقوة

أن يؤثر على روما لتغيير مواقفها، وكان يعتقد أنه قادر على ذلك حقا، أما صدربعل، فكان على ثقة أن صيفاقس سيقع في ورطة عظيمة مع حلفائه الرومان، لذلك كانت آخر كلمة قالها: لا تنس أيها الملك المبجل أن الرومان هم الذين يسمونكم البربر، ويتعاملون معكم على هذا الأساس.

كانت تلك إهانة كبيرة، يعرف صدربعل مدى تأثيرها العميق في نفوس هؤلاء القادة الأمازيغ، فقالها لكي يذكره دوما بما يعتقده الرومان فيهم من وضاعة وخسة. لو قدر لشخص آخر غير صيفاقس أن يسمع تلك الجملة، لتحدى قائلها بالنزال للمبارزة سيفا لسيف، لكنه يعرف أن صدربعل قالها لكي يستميله أكثر، فقال صيفاقس وهو يعدل زناره: لو ترك الأمر للرومان لاخترعوا للقرطاجيين اسما لن يجدوه في أي كتاب، ألستم أنتم البونيين؟.

كان ذلك الحوار آخر سهم في جعبة صيفاقس عليه أن يستخدمه بحنكة وذكاء، فقد انتزع من القرطاجيين موافقتهم على الصلح والسلام، فاعتقد أنه حقق إنجازا

عظيما سوف تشكره عليه روما، وربما حلم أيضا أن يصنعوا له تمثالا يضعوه على بوابة مجلس السانتو، ويشيرون إليه قائلين، هذا ملك نوميديا الكبرى الذي خلصنا من هانيبعل وجنونه، لكن ذلك لم يحدث ولن يحدث، ليس لأن روما لم تكن تبحث عن السلام فقط، وإنما لأن صيفاقس كان طيبا وبسيطا إلى حد السذاجة فيما يتعلق بمعرفته للرومان، وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أنه كان يجهل هؤلاء اللاتين تماما.

ذهب وهو يأمل أن يحقق ما عجز عنه الكبار من قضاة قرطاج التنفيذيين ومجلس شيوخ روما الموقر، لكنه كان حالما ليس أكثر، لأنه كما قال وزيره فيرميا بن أمزوار، كلف نفسه عناء أمر السماء نفسها لا تريده، وقال له أيضا: هل ستعاند الأرباب يا مولاي، لقد كتب هناك في الأعلى في السماء، أن تتحارب قرطاجنة وروما حتى تبيد إحداهما الأخرى.

ابتسم صيفاقس من عصبية وزيره، ومن غضبته الصادقة، وقال: هل بدأت تجالس الكهان يا فيرميا؟.

كان السؤال غريبا، وظاهره فيه الهزء لخروجه عن سياق الموضوع، فقال الوزير وهو يخفي دهشته: أنا كعهدك بي يا مولاي.

قال: إذن من الذي همس في أذنك أن السماء كتبت هذه الحرب علينا؟. أرسل آهة وقال: نعم فهمت، يبدو أنني بدأت أفقد فطنتي، اقترب صيفاقس من وزيره وربت على كتفه قائلا، لا بأس عليك، فقط هي الدماء الغزيرة التي تذهب هدرا، هي من يحمسني لإيقاف هذه الحرب المجنونة، وأخشى أنني لن أستطيع.

نعم لم ينجح صيفاقس في وساطته، رغم أنه كان حريصا على إقرار السلم في المنطقة، فإنه عندما رجع إلى سيغا، انشغل بمرض أصابه، ثم لم يلبث أن اجتمع بالرسول الروماني ماركوس الذي جاء موفدا من القنصل أميليوس تيبروس، فعرض عليه صيفاقس الصلح والسلام مع قرطاجنة، وتكفل هو شخصيا بالحديث عنها بما يرضي شيوخ روما وقناصلتها.

استمع الرسول ماركوس حتى النهاية، وكان يبدو ضجرا ضيق الصدر من شرح الملك صيفاقس، فكان

يهز رأسه دون أن ينبس بحرف واحد، ولما انتهى الملك من عرضه الذي حرص على تزيينه وتقديمه بطريقة مغرية ومقبولة، قال الضابط ماركوس: لم أحضر إليكم يا مولاي لكي نتحدث في أي صلح مع هانيبعل، وخاصة أننا سددنا له ضربات موجعة في هسبانيا ونحن على ثقة بأنه سيعود أدراجه حاملا خيبته إلى قرطاجنة.
سأل صيفاقس وقد ارتفع حاجبيه دهشة: ولم جئت إذن وقد أخبرتكم مسبقا بما لدي؟. قال: لقد أرسلني سيدي أميليوس لكي أتأكد بأنكم ما زلتم حلفاء لروما العظيمة، ولكي نحضر لهجومنا النهائي والقاصم على قوات هانيبعل بقيادة قائدنا العظيم سيبيون إيمليانوس.

امتعض الملك صيفاقس من هذه اللهجة الآمرة، فقال وقد بدأ اليأس والضيق يتسللان إلى قلبه: وأنا أعرض الصلح أولا على الجميع.

قال الرسول: لو أردنا الصلح يا مولاي فلن نطلبه من نوميدي أبدا.. ثم تابع: لدينا طرقنا ووسائلنا ونعرف متى نقاتل ومتى نصالح.

غضب الملك من هذا الرد الوقح، فقام من مجلسه الملكي واقترب من الرسول الروماني، حتى كاد أنفه أن يلمس أنف الرسول، ثم قال: وإذن أخبر قائدك الذي أرسلك إلينا أن سيغا وجميع من فيها سيقاتلون إلى جانب قرطاجنة، أقسم برب الشمس والقمر، لولا خشيتي أن أبدع سنة يتبعها الحكام من بعدي، لأمرت بقطع لسانك، ولأرسلته إلى سيدك القميء، ولكنني أخاف أن يقال صيفاقس قد فعلها قبلنا..ثم زجره بقوة قائلا: انصرف من قصري.

كان الرسول الروماني أمينا جدا في إيصال الرسالة إلى سيده، ولم يكن بحاجة إلى أن يزيد حرفا واحدا من عنده لكي يوغر صدره على صيفاقس ومملكته، إذ كان يأمل أن تتحسن العلاقات بين سيغا وروما، لذلك اكتفى بالقول: إن ملك مازيسيليا صيفاقس بن يفاو يعرض الصلح مع قرطاجنة، وإن رفضنا سيضم قوته إلى هانيبعل ويقاتل إلى جانبه.

لم يصدق القنصل تيبروس ما بلغه وما يسمعه الآن، فقال وهو يمسك رسوله من تلابيبه: هل أنت واثق من ذلك أيها الرجل؟.

أجاب بهدوء وهو يحاول بلع ريقه: ذلك أقل ما حدث يا سيدي، ولا أجدني بحاجة إلى ترداد إهانته لي ولكم مرة أخرى، فلو تعلق الأمر بي فما أنا إلا رسول إن وقع بين يدي حاكم نزق فسوف يقطع رأسه، أما إهانته لروما فلن أرددها أمامكم مجددا.

قام القنصل بعدها بعرض الرسالة كاملة أمام مجلس الشيوخ الروماني، وكان يتميز من الغضب، فيكاد يقفز عن مقعده وهو يطلب من الرسول أن يخبر الشيوخ بما عرفه وسمعه، وقد أصيب الرسول بالحرج من إلحاح سيده، فهب القنصل واقفا وهو يلوح بيده ويقول: أخبر الشيوخ الأجلاء بكل شيء، ولا تخفي عنهم أية كلمة تفوه بها ذلك الملك الأرعن، أخبرهم ليعرفوا أن هؤلاء البربر لا عهد ولا أمان لهم.

وعندما طلب منه أحد السيناتورات أن يترو قليلا، لم يتمالك أعصابه فانفجر بالصراخ من شدة الغضب،

يحدث حالة من الفوضى في المجلس. لقد كان يكره كل ما يمت للجهة الجنوبية من البحر بصلة. ويعتبر جرأة هانيبعل على روما بسبب النوميديين الذين أعانوه برجالهم وعتادهم، وكان يقول: لولا هؤلاء البربر لكنا في سلام مبين، فقال والبصاق يتطاير من فمه: إنهم جميعا مثل أسماك السلمون يسيرون في اتجاه واحد، والغبي هو من يأمنهم، فهلا أعلنتم الحرب عليه.

لم تنقطع المراسلات بين ماسينيسا وخطيبته صوفونيسبا، فكانا يتراسلان باستمرار وبشكل منتظم، وعندما كانت تتأخر رسائلها، كان يبعث برسالتين دفعة واحدة، وكانت كل رسالة أكثر حرارة من أختها، فيها من حديث الشوق والعشق ما لا يعرفه إلا من جرب البعاد واللوعة، ولم تبخل عليه حسناء قرطاج بمشاعرها وأشواقها، فقد زادته إثارة وأشعلت جميع الحطب الذي كان يختزنه لحين العودة، فلم يعد يطق صبرا على البعد، ولا هو تمكن من العودة، وكيف يعود وهو بصحبة قادة قرطاج جميعا، لذلك صار يتمنى أن تنتهي الحرب، ولا يهم كيف ولمن، وعندما يلوح له

وجهها وابتسامتها ويذكر قبلاتها أثناء المعركة، كان يجن جنونه فينقض ضاربا هنا وهناك، حتى ليحسبه الناظر إليه من بعيد، أنه عفريت من الجن يقود فرسا من عوالم السحر، ويحمل سيفا لولبيا يتناول فيه رقاب الأعداء كما تفعل الضفدعة الخبيرة وهي على حافة المستنقع، وأمامها من الحشرات ما لذ وطاب، فتختار فرائسها وهي في منتهى المتعة، هو الأكل للمتعة وليس لإشباع البطن كما يصنع بقية الخلق، وهو من أجل ابتسامة الحبيبة صوفي قطف عدة رؤوس من الرومان دفعة واحدة، إنه عندما يبصر شفق الفجر أو شمس الغروب يستمد منها الصبر والعزم والإرادة، وفي رسالته الأخيرة إليها كتب:" لا أستطيع إلا أن أحبك أكثر، إني مدين لك بهذا الحب، الذي خلق بداخلي عاصفة من الخير والجمال، لقد كان لقرطاجنة الفضل في تعليمي كيفية الضرب بالسيف والرمي بالسهم، لقد علمتني القتال، لكنها في المقابل علمتني الأبجدية، أبجدية الكتابة وأبجدة التأليف، وأبجدية الحكمة، ما أريد قوله أني هنا كالفلاح الذي

يقلم أشجاره ويجتث الهرمة منها لكي يعيد زراعة الفسائل الصغيرة من جديد، لقد تعلمت الحب..".

عندما قرأت صوفونيسبا هذه الرسالة بكت كثيرا، واحتفظت بها على غير العادة في إناء زجاجي مذهب، اعتادت أن تضع فيه أفضل ما عندها من مسك وأجود ما لديها من عنبر، وظلت محتفظة بها حتى آخر يوم في حياتها.

وكما كان ماسينيسا، الشاب القوي الذي يفور حيوية ومرونة، يتوق شوقا لضمها، كانت هي أيضا تنضح بالصبا والجمال وبحاجة ماسة لمن يقطف من شفتيها ألق المتعة، ويلم من نهديها أزهار الشوق، كان شوقها لفارسها يعذبها، وقد أسرت لأمها مرة أنها تفكر حقا في الذهاب إلى هسبانيا، فليس ما يمنع من ذهابها، ومن أسباب سعادتها الكبرى أن تكون إلى جانب أبيها وحبيبها معا، لكن الأم الحكيمة رفضت الفكرة برمتها، وقالت بلهجة صارمة: القرطاجيون لا يأخذون نساءهم في حروبهم، وإلا لفعلها قائدنا هانيبعل، وأنت تعلمين يا ابنتي أن جنودنا ما زالوا هنا في المدينة، فأخبريني عن السبب الحقيقي الذي دفعك لمثل هذا

التفكير؟. هل هو الشوق لخطيبك الأمير النوميدي، ألست تطيقين البعاد عنه إلى هذه الدرجة؟. لم تخجل الفتاة من البوح لأمها بما يكويها، فقالت: إن العشق يحرقني يا أمي، لقد جربت لذته، قالت الأم: اصبري فستجدين بعد الصبر لذة أكبر.

سألت الفتاة الملتاعة: ومن أين آتي بالصبر يا أماه، هل يباع الصبر فأشتريه؟. قالت: بل ازرعيه يا ابنتي، ازرعيه إلى جانب مخدتك، وعندما تضعين رأسك عليها ليلا، اقطفي وردة وانتظري الخير. قالت وهي تهز رأسها: سوف أفعل، ليس بيدي إلا أن أفعل.

كانا يقاتلان معا، الغربة والشوق والفناء بسلاح الصبر، على أمل أن يكون اللقاء أكثر متعة ،اشد صفاء وجاذبية، ولكن لا أحد على الإطلاق يمكنه توقع ما سيحدث في ظهر الغيب.

فقد صبرت وتحملت، وصبر هو وتحمل أكثر منها، لكن رياح الصبر جاءت عاصفة حزينة ومؤلمة، وعلى غير المتوقع، فغيرت معها مسار كل شيء، لكنها لم تتمكن من تغيير حب سكن عمق القلوب، فاحتفظت لماسينيسا

بطعم آخر قبلة رسمها على شفتيها، وظل عالقا في خياله آخر آهة عشق سمعتها أذناه من شفتيها.

تسارعت الأحداث في هسبانيا، فكانت الحرب سجالا بين الطرفين، كما تطورت المواقف في نوميديا الشرقية ونوميديا الغربية، وحتى في طنجة الموريتانية، وكان الإغريق على الأبواب أيضا، إنها المغامرة التي كانت تتحكم بكل شيء، أو كما سماها الملك غايا لزوجته روح الشياطين التي تتلاعب وتتراقص في المنطقة برمتها، فتنتزع أرواح الرجال وتلقي بها في أتون الجحيم الذي يحرسه الرومان.

كان الملك فخورا بولده الأمير، لكن الملكة لم تطمئن لما يجري هناك وراء البحر من معارك، وكانت كلما أعلنت مخاوفها لزوجها، نهرها قائلا: إن ماسين سوف يعود وسوف يحكم الجميع، فلا تخشي على ولدك شيئا، وإنما كل الخشية منه، فتبتسم وتطمئن قليلا، لمعرفتها بأنه كما يقول والده وأكثر قليلا، ويعود للقول، إنه الآن في هسبانيا على رأس قوات عظيمة من الفرسان الخيالة النوميديين، يقاتل جنبا إلى جنب مع هانيبعل

وأخويه صدربعل برقا ومارجو برقا، ألا يكفيك ذلك.. إنه لمن دواعي الفخر أن يصطدم ابننا ماسين بكتف هانيبعل وهما يقاتلان الرومان الملاعين.

لقد كان الملك العجوز محقا، فقد كان ماسينيسا يومها يقود آخر معاركه في هسبانيا، حيث أسرع الجيش القرطاجي بقيادة صدربعل جيسكو إلى أيبيريا، بعد هزيمة صدربعل برقا في معركة درتوسا في ربيع عام 215 ق.م. وفي عام 212 ق.م، حيث قرر القائدان الرومانيان بابليوس سيبيون وغنايوس سيبيون مهاجمة القرطاجيين، فسار بابليوس بقواته لمواجهة قوات صدربعل جيسكو وماجو برقا، بعد تلقيهما تعزيزات قوية من الفرسان النوميديين بقيادة الأمير ماسينيسا.

كان الوقت فجرا، والهواء مشبع برائحة العشب المسحوق، لم يتمكن الفلاحون من حصاد قمحهم وشعيرهم، إذ فاجأتهم المعركة التي تدور على أرضهم، فتطوع بعضهم في جيش هانيبعل مقابل أجرة شهرية، وفضل بعضهم الآخر الانسحاب نحو المدن، امتلأ الوادي الكبير مع السهل بطبقة دخانية منعشة من

الضباب، واستنفرت الطيور الصغيرة فهجرت أعشاشها قبل الوقت، أما الأمير الضابط ماسينيسا بن غايا فكان لا يكف عن الحركة والتنقل بين وحدات الفرسان والمشاة، باعثا الدفء والحيوية والشجاعة في قلوب جنوده.

كان الجميع يرتعدون من هول ما سيحدث، وخاصة عندما كان كل طرف يشاهد جموع خصمه، ويستمعون إلى دقات الطبول وصرخات الرجال الذين يدعون للالتحام، فسأل أحدهم أميره ماسينيسا: هل من خير لنا في هذه الحرب؟.

نظر الأمير إلى الخيال النوميدي، وتفحصه مليا ثم قال: لا ولكنه المجد.

كان ماسينيسا أكثر الناس قناعة بأن هذه الحرب لا مجد فيها ولا خير يرتجى من ورائها، فهي ليست حربهم المفروضة أو المحببة على أية حال.

لم تبزغ شمس ذلك اليوم كالمعتاد، وإنما كانت شاهدة على حرب ضروس أبيد فيها آلاف الرجال، فقد اشتبكت القوات النوميدية بالقوات الرومانية، فطارت

الرؤوس والأيدي والأرجل، واقتلع الرجال من فوق سروج أحصنتهم، وسالت الكثير من الدماء، وفي المحصلة هُزمت القوات الرومانية وقتل بابليوس سيبيون، فخلفه في القيادة ابنه الشاب سيبيون إيمليانوس، وبعد ذلك مباشرة، سارع صدربعل جيسكو بقواته للانضمام إلى قوات صدربعل برقا شقيق هانيبعل، فتمكنت القوات المشتركة القرطاجية من نصب كمين لغنايوس سيبيون وحققوا نصراً آخر على الرومان، وألحقوا غنايوس بشقيقه بابليوس.

الانتقام الصارم

في 205 ق.م، تولى القنصل سيبيون إيمليانوس قيادة الفيالق الرومانية في هسبانيا، وقد استقر رأيه أن أفضل طريقة لإزاحة هانيبعل من شبه الجزيرة الإيبيرية، وإبعاد شره عن روما التي كان يسعى جاهدا لاحتلالها، تكمن في نقل الحرب إلى قرطاجنة نفسها.

وعندما حاول حنبعل قطع جبال الألب عمد إلى تدفئة أجساد رجاله أمام النار ثم دهنها بالزيت كي تبقى دافئة.

وكان قد قطع جبال الألب راكبا على فيل وبجانبه حصان، وعندما سأله أحد مرافقيه: لماذا الحصان؟ قال: إنّ الفيل قويّ ولكنّه بطيء أمّا الحصان فيتسم بالسرعة، وهو أنسب لحال الكر والفر في وقت المعارك، وكان أثناء عبوره لجبال الألب، إذا اعترضت سيره صخرة كبيرة تسد أمامه الطريق عمد إلى تسخينها بالنار ثم صب النبيذ فوقها حتى تتصدع وتتفتت.

كان ماسينيسا جنديا وضابطا شجاعا في جيش هانيبعل، وقد أتاحت له تلك المشاركة معرفة أشياء

كثيرة، وأكسبته خبرة واسعة في القتال والمناورة، وقد حدث في إحدىٰ الليالي شديدة البرودة، أن أراد الجيش الروماني تطويق القرطاجيين ليلا وأخذهم علىٰ حين غرة، ولكن هانيبعل تفطن للشَرك الذي يتم تحضيره، فأمسك بقطيع من الأغنام وربط في قرونها المشاعل الملتهبة، ثم أطلقها فلما رأىٰ الرومان المشاعل ظنوا أن الجيش القرطاجي يتحرك ليلا، فذهبوا وراءهم بينما كان هانيبعل وجيشه يعبرون الطريق بسلام، وقد كان أحيانا يتموه بشعر مستعار ويذهب لاستقصاء أخبار العدو بنفسه.

وفي عام 206 ق.م.، ضم صدربعل جيسكو قوات جديدة إلىٰ جيشه، وتعرض لهجوم مباغت مع ماجو برقا من قبل قوات سيبيون الإفريقي، فهزمهم في معركة إليبا.

اضطرت قوات صدربعل جيسكو إلىٰ التراجع والانسحاب نحو إفريقية، وكان ذلك إيذانا لخسارة هانيبعل حربه الإسبانية، بعدما كان يأمل في غزو روما واحتلالها، فأصبح عليه اليوم أن يحمي مقدمة جيشه، ويسرع الخطىٰ نحو قرطاجنة التي قرر سيبيون

إيمليانوس أن ينقل الحرب والخطر إليها، وعندما خطب في جنوده مبررا تراجعه، كاد أن يبكي من الخجل والحنق، لقد وعدهم بأشياء كثيرة، وهو عاجز اليوم عن تأمين الحماية لأقرب الناس إليه، فأدرك الرجال ومنهم ماسينيسا أن قرطاجنة خسرت حربها مع روما، أو على الأقل بدأ سلم الخسارات، وعندما أسر بذلك لمساعده المخلص غيلاس، نفى هذا أن يكون الأمر على هذه الشاكلة، بل وأكد أيضا أن تلك من خدع هانيبعل ومحاولاته لإخفاء حقيقة نواياه، لكن الفارس ماسينيسا ضرب على صدر صاحبه وقال، بل لقد خسر كل شيء، أعرف الرجال عندما يهزمون كيف تكون أصواتهم، فتغيرت بذلك التحالفات، أو بالأحرى اتفق القرطاجيون مع الملك صيفاقس على اقتسام مملكة نوميديا الشرقية، مستغلين وفاة الملك غايا وانشغال الأمير ماسينيسا في الحرب الإسبانية، فأبدى القرطاجيون رضاهم على توحيد نوميديا، على أن يكون لهم حق التنقل والتجارة فيها، والوقوف معا في وجه الرومان الذين نقلوا الحرب من القارة الأوروبية إلى شمال

إفريقية، وهكذا ولد التحالف بين صيفاقس وقرطاجنة، وأما عربون هذه الصداقة الجديدة فتكرس في زواج صيفاقس من الحسناء صوفونيسبا، التي كانت خطيبة رسميا لماسينيسا، وقد فعلت ذلك من أجل قومها، متجاهلة مشاعرها وأحاسيسها، حيث وافقت على عرض والدها بعد نقاش حاد دام طوال الليل، لكن ذلك الزواج كان نقمة على الجميع، وخاصة على الملك صيفاقس الذي اتهمه ماسينيسا لاحقا بالجنون والتهور.

كان من الصعب على صوفونيسبا أن تقنع نفسها أن ما فعلته هو عين الصواب، لقد جاهدت عواطفها كثيرا، لكنها قبلت أخيرا بما توصلت إليه بنفسها، واقتنعت أو أقنعت نفسها أنها من أجل قرطاجنة هي على استعداد للموت مئة مرة، ولا بأس عندها أن تقتل حبها الوليد الذي لم تكتمل فرحته بعد، لتنام في حضن رجل آخر تعتقد أن فيه فائدة لقومها، والتحالف معه سوف يجنب قرطاج مزيدا من الانكسارات.

لم يكن من السهل عليها هذا التحول الجديد، لقد كانت بحاجة إلى وقت لكي تستوعب التغير الذي طرأ

عليه، حتى إنها كانت تغلط فتناديه باسم ماسينيسا، وعندما سألها عن ذلك، دارت إحراجها وقالت وهي تضحك: إنك حقا كبير قومك وسيدهم فأين الغرابة في ذلك، فيرد عليها بابتسامة رضى، لعلمه أن ليس هنالك كبير فرق بين اللسان الفينيقي ولسان الأمازيغ.

في البداية كان صيفاقس يجهل تماما خطبة صوفونيسبا على ماسينيسا، ولم يخبره صدربعل والدها بذلك، وهو عندما رآها مع والدها للمرة الأولى، أبدى رغبته في الزواج بها، معتبرا ذلك خطوة تحالفية بينهما لا يمحوها الزمن، لكنهم في واقع الحال كانوا يعملون لمصالحهم الخاصة، وخاصة صيفاقس الذي انصب كل اهتمامه وتفكيره وتحالفاته على تحقيق وحدة المملكة النوميدية، دون أن يكلف نفسه عناء استشارة خصمه الملك الجديد ماسينيسا، فلو أنه صنع لوجد عنده آذانا صاغية.

كان ماسينيسا مايزال موجودا في هسبانيا، يوم بدأت الخطوات الأولى لتغير خارطة التحالفات في شمال إفريقية، فقد تسارعت الأحداث في المنطقة وداخل جميع ممالكها، وكذا بدأت كفة الحرب في

هسبانيا تميل لصالح روما، فأصبحت نوميديا الغربية حليفة جديدة لقرطاجنة، وكان صيفاقس قد عاد إليها مجددا على رأس جيش كبير، بعد أن رفض الرومان كل عروضه السلمية، ثم توفي الملك غايا، فطمع الجميع في عرشه، وخاصة أبناء إخوته الذين يكنون البغض والكراهية للأمير ماسينيسا ابن عمهم المتوفى، فأرسلوا أحدهم إلى قرطاجنة لاستشاره قضاتها في انتزاع الملك من ماسينيسا، وتقاسمه معها، وفي الأثناء استلمت الحكم الملكة الأم في غياب ابنها ماسينيسا، الذي طال بعده هناك وهو يقاتل بشراسة وبسالة إلى جانب هانيبعل وإخوته، وقد آلمه أن يرى المرتزقة يتقاضون مبالغ كبيرة لقتال الرومان، بينما كان النوميديون يقاتلون بالنيابة عن غيرهم.

وصلت الأخبار السيئة إلى ماسينيسا دفعة واحدة، وتلك كانت إحدى مفارقات حياته، فبعد أن تأكد له أن كل جهوده في الحرب ذهبت أدراج الرياح، جاءه من يخبره بموت والده، فلم يكد يستوعب النبأ ويستعد لما بعده، حتى علم بخبر تحالف قرطاجنة مع صيفاقس

التي كـان يحـارب في صـفوف جيشـه، فرحـب بهـذا التحول وابتهج له. معتقدا أنه سيعجل بحسم الحرب لصالح هنيبعل، لكن رسول الملكة أمه الذي جاءه بهذا الخبر طلب منه ألا يسعد به كثيرا، وعندما سـأله عـن السبب، أشفق عليه أن يخبره بكامـل الحقيقـة، واكتفـى بـالقول إن هـؤلاء لم يتفقـوا إلا علينـا، بـل إن أبنـاء عمومتك اتفقوا عليك أيضا، فالأخبار السيئة تأتي جملـة واحدة، لكي لا تترك بعدها مكانا للتسامح والصفح.

تناهى إليه أيضا خبر ذلك الاتفـاق بـين صدربعل جيسكو وصيفاقس حول اقتسام المملكة بينهما، فكاد أن يطير صوابه، وخاصة لما أرسلت إليـه والدتـه تخبره بـما يدبره أبناء عمومته في السر، فأقسم سـاعتها، أن ينـتقم من جميع الذين غدروا به واتفقوا على النيل منه، وإنه لمن الصعب على من يتخلقون بأخلاق الفرسان ونبلهم أن يقبلوا بالغدر والخيانة، أو يتسامحوا عـن الخونـة، كانـت الخيانة والغدر من أكبر الآثام بنظره وعقيدته، وفوق كل ذلك وقبل أن يستفيق مـن هـول الصدمة، جـاءه خـبر زواج حبيبته وخطيبته مـن الملـك صـيفاقس، فاعتبرهـا

صفقة غادرة ومشينة بحقه، وخطوة دنيئة لا يقدم على مثلها الرجال الأحرار الذين يعتزون بكرامتهم وأنفتهم، ولطمة قاسية وجهتها صوفونيسبا ابنة صدربعل جيسكو إليه، فاتجه من فوره إلى معسكر سيبيون إيميليانوس مع جميع جنده، وكان يقول: لأي سبب غدرت بي وباعتني، هل ضغطوا عليها وأجبروها على هذا الزواج، أو إن كل الحب الذي كان بيننا لا يصلح إلا للتجارة الرخيصة؟.

ترك ماسينيسا ساحة القتال، ومعه أكثر من ألفي خيال من فرسانه، وعاد مسرعا إلى نوميديا، وكان قد أرسل مبعوثا خفية إلى الجانب الروماني يخبرهم فيه أنه لا يمانع من القتال إلى جانبهم إن اقتضى الأمر، وقد سعد القائد الشاب سيبيون إيميليانوس بهذا التحول، فليس أحب عنده من أن يجد لقواته مكانا مرحبا فيه بها في نوميديا.

لم ينتظر ماسينيسا ليرسم معالم تحالفاته الجديدة مع الرومان، وإنما أسرع في العودة لكي يقف في وجوه الذين يقتسمون التركة من وراء ظهره، وما أن وصل إلى

عاصمته هيبو ريجيوس حتى عرف من والدته تفاصيل ما حدث، أما صدربعل فقد انتقل بجيشه إلى سيغا، وحط الرحال بها، وتأهب الجميع للمقاومة والدفاع، وسارع الرومان في النزول بشمال إفريقية، حيث لحق قائد الجيوش الرومانية القنصل سيبيون الإفريقي بجيش صدربعل المتراجع، أما هانيبعل، فركب البحر ورجع إلى قرطاجنة بعدما تهاوت جميع قلاعه في هسبانيا.

لم ينم ماسين تلك الليلة، رغم محاولات والدته لطمأنته والتخفيف عنه، فكان يصرخ قائلا: كيف حدث ذلك يا أمي؟ كيف أمكنهم أن يزوجوا امرأة متزوجة؟.

استجمعت الملكة كل ما تعرفه من حكمة وحنكة، وقررت أن تصدم ولدها بشر أكبر من خسارته لحبيبته، فقالت: هل نسيت أن صيفاقس بسط نفوذه على كثير من أراضي المملكة بتواطؤ من قرطاجة، وهم اليوم يحاولون عزلك والتخلص منك، وأنت تبكي أمامي على امرأة فقدتها وكأن النساء انقرضن وانتهين من بعدها.

كانت الملكة بحاجة لمن يعزيها ويخفف عنها، لكنها تجشمت عناء كل شيء من أجل ابنها، فقالت مواسية: يا بني عندما تعشق امرأة رجلا فلا يمكن لأي قوة على الأرض أن تمنعها عنه، ولو أرادتك تلك القرطاجية لما تزوجت برجل غيرك.

قال وهو ينتفض من الألم والغيظ: إنها تحبني بل تعشقني وأعرف ذلك جيدا، احمرت عيناه وهو يبوح بحبه، حتى كاد أن يبكي من الحرقة والغضب، فقامت الملكة إلى وصيفاتها، وأمرت إحداهن أن تجالس ابنها حتى يهدأ، وأوصتها أن تقدم له الشراب وتحاول جهدها التخفيف عنه.

كان يتصرف كأي عاشق مغدور مكلوم، وضع قلبه بين يدي امرأة، فلما استيقظ وجده مطعونا وملقى على بساط الخيانة، وكان كل همه أن يعرف هل باعته صوفونيسبا وتخلت عنه، أو أجبروها وغصبوها على هذا الزواج، ولم تتوان الوصيفة في مساعدته والتخفيف عنه، فشرب وشرب، وكلما أسرف في الشراب تخلى عن حيائه وتحفظه أمامها، فبات يحدثها ويستشيرها، فقالت،

وهي تفرك بيده على صدرها وتقرب خدها الجميل الناعم من كتفه: ما من امرأة تستحق منك كل هذا الحزن يا مولاي، وأنا امرأة وأعرف ما أقول.

نظر إليها بعينين هائمتين، لكنه ما زال محافظا على فطنته وتركيزه، وقال، أفصحي يا امرأة؟، قالت: من حسن حظكم أيها الرجال، أن جميع النساء يستوين في الظلام، ولا تفرق بين امرأة وأختها إلا من حديثها فقط، حيث يختفي حسنها وجمالها، فهل جربت يا مولاي أن تحدث امرأة تحبها في العتمة؟ تابعت بعدما رأت أنها استأثرت باهتمامه: لو أنك فعلت فستعرف كم أنا مصيبة في حكمي.

شدت رأسه إلى صدرها، فشعر بحرارتها اللطيفة، وسمع دقات قلبها المتسارعة، فسألها وهو بين النوم واليقظة: تابعي حديثك، لم أنت خائفة؟.

قالت: لست خائفة يا مولاي، ثم أغرقت رأسه بين نهديها، وتابعت: بل متلهفة ومشتاقة يا سيدي، وليس أعظم عندي من ساعة أقضيها معك، أعرف فيها معنى الفروسية والرجولة.

كانت ساعات نسي فيها ماسين الشاب ألمه إلى حين، فرأى في منامه وهو في أحضان وصيفة أمه التي عرفت كيف تطفئ غضبه وحنقه، أن كل الذين عرفهم وأحبهم يقاتلونه فيقتلونه، وكلما اعتقدوا أنهم تخلصوا منه عاد إلى الحياة من جديد.

استيقظ ذلك اليوم مبكرا، وكأنه ما يزال في ساحات القتال، وكان أول شيء فعله أن كتب رسالة إلى الملك صيفاقس، حملها إليه مساعده المقرب القديم، الذي حافظ على ولائه له، وهو مادغيس الملقب بغيلاس الكبير، قال له فيها: أنه يعتبره عارا على الملوك، فليس من أخلاق هؤلاء التعدي على نساء غيرهم وليس من المروءة استغلال موت ملك عجوز لتقاسم مملكته أثناء غياب ورثته، وإنه لمن المخجل أن يبدل الملوك تحالفاتهم كما يغيرون عبيدهم.

لقد أغلظ له في الوصف، وأكثر من الإهانات، لدرجة أنه أخبر مساعده بما في الرسالة، وخيره في إيصالها، وقد فعل ذلك حتى لا يقول عنه لاحقا، لقد غدر بي ماسينيسا، عندما حملني رسالة إلى ملك لا

يحملها أي عاقل، لكن غيلاس الكبير، لما عرف فحوى الرسالة تشجع على حملها وإيصالها، فقد كان يشعر بما يعتمل في قلب سيده، وهو يشاطره ذلك الألم، فكثيرا ما حدثه عن حبه وأحلامه وهما في هسبانيا، فبات يعرف كثيرا من تفاصيل حياة سيده، كان غيلاس الكبير أكثر من مساعد وأقل من صديق، من أجل ذلك كتب عليه أن يمضي بقية حياته مع مليكه الذي أحبه.

وصل رسول ماسينيسا إلى سيغا، وسلم الرسالة إلى ملكها، وأخذ يراقب انفعالات الملك وما سيكون قراره، وكان على ثقة بأنه لن يغادر هذه المدينة الجميلة حيا، كان الملك يقرأ والرسول يراقب، فلاحظ بعض قطرات من العرق تفصدت من جبينه، كما انتفخت أوداجه أو تكاد، وارتفع الدم إلى وجهه، لقد كان يعرف أية شتائم يقرؤها، ولم تكن العادة أن يعرف الرسل فحوى الرسائل التي يحملونها من ملوكهم إلى غيرهم، لكن ماسينيسا تعمد أن يخبره، حيث ذهبت ظنونه أنه سيقتله، ومن غير المنصف أن ترسل رجلا تحبه إلى حتفه دون أن تخبره.

أمر صيفاقس بإكرام رسول ملك مزيليه، ولم يكن في نيته أن يسيء إليه، فلم تكن تلك من أخلاقه، ولكنه طلب من الرسول، أن يرتاح ويعتبر نفسه في مدينته وقصره، وقال: لك عندي أن أستضيفك ثلاثة أيام، وبعدها سوف أحملك رسالة إلى الملك ماسينيسا. سأل الرسول غيلاس: لكني في عجلة من أمري يا مولاي.

قال صيفاقس: إن أردت الذهاب دون أن تأخذ ردنا فلا بأس عليك، بإمكانك المغادرة.

قال بأدب: لا يا مولاي، ولكن.. قاطعه الملك صيفاقس قائلا: لا أريد أن أكتب ردا فوريا فلست أرغب في كتابة شيء تحت تأثير الغضب، لأني ساعتها سأعلن الحرب قبل أن تصل إلى سيرتا، أليس هذا اسم عاصمتكم الجديدة؟.

قال: لم يستقر الرأي عليها بعد يا مولاي، وإني أشاطركم الرأي بأنه من المستحسن ألا يكون ردكم غاضبا.

ذهب الرسول إلى مخدعه سالما كما جاء، لكنه زرع حقدا كبيرا في قلب صيفاقس، الذي لم ينم على كل تلك

الإهانات، فسارع بإرسال أمر إلى عامله في قصر ماسينيسا أدرف بن سوف أن يحضر نفسه لمهمة عاجلة وخطيرة.

دخل أحدهم غرفة الملكة خلسة، واتخذ موضعا له في زاوية معتمة من الغرفة الكبيرة الواسعة، ذات الأثاث الجميل والأنيق، ويبدو أن هذا الشبح المتسلل اعتاد أن يصنع ذلك كثيرا، فقد أعد لنفسه مكانا يمكنه من رؤية كل شيء يجري حوله، دون أن يراه أحدا، وأيضا يمكنه الهرب والانسحاب من الغرفة دون أن يضطر لفتح الباب، ولا يعرف كل هذه التفاصيل الصغيرة إلا من كان من أهل القصر.

خرجت الملكة تيفاني ساليس والدة الملك ماسينيسا، من غرفتها واتجهت إلى حمامها الخاص، وتلك كانت من عاداتها اليومية فلا تأوي إلى فراشها إلا بعد أن تأخذ حمامها الدافئ، وقد أخبرنها أنهن أعددن لها ملابسها وعطورها وزيوتها والصابون الذي تحبه، لم يكن الحمام الملكي خارج جناحها الخاص، وبالتالي لم تكن مضطرة إلى اعتماد سلوك خاص بذلك، فقد تخلت

عن تحفظها، فتصرفت بعفوية وتلقائية، لا سيما في غياب الخدم، ألقت ملابسها على السرير، وتخلصت من ثيابها الخفيفة، وأخذت تتأمل جسمها وكأنها معجبة به، ثم حلت ضفيرتها وفردت شعرها على ظهرها، وأخذت تمشطه بمنعة وكسل، استلقت على السرير وجعلت رأسها بين راحتيها، وأخذت تغني كالمراهقات، نهضت بخفة ودلع ولبست ثوبا حريريا، فتحت باب غرفتها الذي يؤدي إلى غرفة أخرى تشبه غرفة الاستراحة ومنها سارت في بهو طويل، تعكس جدرانه ذات اللون الفيروزي ظلا شاعريا على أرضه المفروشة بزرابي من الصوف ذات لون ليلكي، يوصل إلى الحمام وإلى جانبه غرفة أخرى نصف مقصورة، كانت تستعملها للراحة والتريض في فصل الصيف.

خلعت الملكة ملابسها الحريرية، وقامت خادمتها بما اعتادت القيام به يوميا، حيث ساعدتها في غسل شعرها، وتليين عضلات فخذيها، وأكملت الملكة حمامها مستمتعة بالماء الساخن المعطر.

فور انتهائها من الاستحمام، لبست ثوبها القطني، واتجهت إلى غرفتها، في حين استعد معظم أهل القصر للنوم، بينما كان ماسينيسا يتسامر مع أصدقائه، وكل واحد منهم يبدي توقعاته بشأن الرسول الذي ذهب بتلك الرسالة النارية، هل سيقتله صيفاقس أو يسجنه، ربما سينكل به قبل أن يقتله، لقد كان منشغل الذهن بانتظار عودة مساعده غيلاس الكبير، والأكيد أن ماسينيسا لم يكلف نفسه عناء فهم خصمه أو حتى محاولة التقرب منه وملاينته.

أما الملكة فجلست على سريرها، وهي تمسك بيدها قارورة من الزيت المعطر، وأخذت تمسح قدميها وفخذيها، ولما انتهت، استلقت على السرير وراحت في غفوة قصيرة، وفي تلك الأثناء كان أحدهم قد فتح الباب الخلفي لمطبخ القصر، فدخل عدة أشخاص بخفة دون إحداث أي ضجيج، وانتقلوا فورا نحو جناح الملكة، التي كانت ساعتها تلبس ثياب نومها، فانتظروها حتى استلقت في فراشها، ثم انقضوا عليها،

وأغلقوا فمها بعد أن وضعوها في كيس كبير كان معهم، وانطلقوا مسرعين على جيادهم مبتعدين عن القصر.

لما اطمأن الملك صيفاقس إلى وقوع الرهينة في قبضته، وأنها في مكان آمن، وسوف تكون قريبا في الطريق إليه، أرسل وراء رسول ماسينيسا، وحمله رسالة مختصرة كتب فيها، "يمكنك أيها الملك الغر، وفي أي وقت تشاء أن تحضر لتحرير أمك الملكة". ثم قال للرسول وهو يهم بالمغادرة: أخبر مليكك أنها ستكون بخير، ولما أراد الرسول أن يستفهم عن هذه التي ستكون بخير، أشار له بمنديل كان معه بالانصراف، ما يعني أنه غير مستعد لسماع استفساره وأسئلته.

لم ينتظر الملك ماسينيسا عودة رسوله غيلاس الكبير ليكتشف أمر اختطاف والدته، فقد جاءته إحدى وصيفاتها في الصباح الباكر، وارتمت على سريره عند قدميه، وهي تشد شعرها وتلطم وجهها، وتندب ملكتها، فظن الملك أن والدته توفيت، لكن الوصيفة أكدت أن الملكة انتزعت ليلا من فراشها وأخذت عنوة إلى مكان مجهول، ولما حاول الملك استفسارها سقطت مغشيا عليها،

فأسرع نحو جناح والدته، فلم يجد سوى بقية الوصيفات وهن يبكين في وضعية مؤثرة ومنفرة، فصرخ بهن قائلا: أمسكن دموعكن وابحثن عن الملكة، فلن يعيدها إلينا كل هذا النحيب.

ولم تكن عنده حاجة للبحث عن الخائن الموجود في القصر، فقد عرفه بمجرد اختفائه، فأحس ساعتها بدوار يعصف برأسه وهو يقول: أدرف بن سوف..لا أكاد أصدق، ورب الأرباب أمون العظيم لا أكاد أصدق، هل كتب علينا أن تأتينا الطعنة دوما من الناس الذين نحبهم؟.

كانت حادثة الاختطاف هي الحجر الأخير الذي طاش له عقل ماسينيسا، وذهب بما كان يختزنه في قلبه من رحمة وعطف، كانت تلك إهانة وتحد يعادل بنظره كل شيء مضى، وعندما كان يدفع الفدية الضخمة، مقابل الإفراج عنها، أقسم ألا ينعم بها صيفاقس طويلا.

ذهب ماسينيسا إلى معبد الشمس بعل حمون، آمون، وهو يقسم بالشمس التي يعبدها ويقدسها، وعندما يصنع ذلك فلا بد أن يبر بقسمه مهما كان الثمن وبلغت التضحيات، فقدم قرابينه، ثم رفع يديه وصرخ: أيتها

الشمس العظيمة، يا أرواح الأجداد الطاهرة، يا أهل السماء المباركين، أعينوني على كل فاسد قاطع طريق، وعلى ملك الفاسدين الذي يحسب نفسه أنه باختطاف ملكة مسالمة، سوف يجلب لنفسه المجد، خسئت انتصاراتك أيها الوغد..وأخذ يغالب دموعه، ثم قام من ركوعه، وقد أضمر في نفسه شرا عظيما.

لما خرج من المعبد، قال لوزيره ماكسن بن يالا، أعطوه طلبه بل وأكثروا له العطاء، لو أنه كان يحتاج الأحصنة والشعير، وطلبها مني باسم رابطة الدم والجيرة، لأعطيته كل ما في إسطبلاتنا من دواب وما في مخازننا من حبوب، وما اشترطت عليه شيئا، أما وأنه اعتدى على حرمة أمنا الملكة، وعمل بأخلاق قطاع الطرق وفتاك الصحراء، فقد كتب بيده نهايته.

هي الإهانة والجرح الذي يصعب التغاضي عنه، أو قبول الصفح والغفران، لقد بلغت الأحقاد أوجها، وامتلأت القلوب بالغل، ولو قيد الأمر للملكين أن يتصافيا لفعلا، ولكن كيف وفي كفتي الميزان تقع روما بقناصلها، وقرطاجنة بقضاتها؟ ثم إن العقول الحكيمة

تبخرت مع وصول الرومان إلى الضفة الجنوبية للبحر، لقد جاء هؤلاء وهم يبيتون خطة محكمة لا تقوم بعدها دولة قوية في هذه المنطقة.

كانت الفدية ألف حصان وقناطير من الحنطة ومثلها من الشعير، فلم تكن عنده حاجة لمال ماسينيسا أو لذهبه، وإنما كان يبحث عن الدواب والطعام، استعدادا لحربه المقبلة مع الرومان، لكنه بخطف الملكة اشترى لنفسه عدوا حاقدا لا تلين له عزيمة، ولا يستقر ويهدأ له بال حتى يرى خصمه معلقا على حبل المشنقة، لقد أقسم وأكثر من القسم أن ينتقم لشرفه الملكي ويستأصل العائلة المازيسيلية من الوجود.

انتقل ماسينيسا من عاصمة والده إلى مسقط رأسه في إحدى القرى الجبلية الواقعة في الوسط الشرقي لنوميديا، وهناك اختار بناء عاصمة جديدة لمملكته، غير العاصمة البحرية التي لم تكن برأيه آمنة، وسماها سيرتا، وكان قد جمع معه أكثر من خمسة آلاف فارس وضعفهم من المشاة، وأسرع بعدها نحو الغرب، بهدف الالتقاء بالقوات الرومانية التي عسكر بعضها في موريتانيا الطنجية،

وبعضهم الآخر اتخذ معسكرات له داخل حدود مملكته، بمحاذاة نوميديا الغربية، فلم يكن من بد من الحرب العاجلة والقاصمة.

وقع الاتفاق بين القائد العام الروماني سيبيون والملك ماسينيسا على الاستمرار في الحرب حتى النهاية، فكان الأول متحرقا للقضاء على هانيبعل، والحد من قدراته العسكرية نهائيا، ورفض مقترحات مجلس الشيوخ لتدمير قرطاجنة والتخلص منها، والثاني اعتبر المعركة قضية شخصية لها علاقة بالكرامة والشرف، وأكثر من ذلك لم يتردد ماسينيسا عن قيادة الجيش بنفسه، وكان يرفض أن يتقدمه أحد، وعندما صنع صديق طفولته وابن خالته الفارس أنابو ذلك، سارع إليه بحصانه وجذبه إلى الخلف قائلا بغضب: إنها معركتي أنا ولن أسمح لأحد أن يتجاوزني فيها.

قال أنابو الذي فوجئ بردة فعله العنيفة: وهي حربي ومعركتي أيضا أيها الملك العظيم، فالملكة أمك هي خالتي.

اعتذر ماسينيسا عن سلوكه العنيف، لكنه أكد للجميع أن المعركة التي سيخوضونها ضد صيفاقس وصدربعل لا يمكن التهاون فيها أبدا، ولا بد من إبادة جيش العدو عن بكرة أبيهم.

وقد كان ما أراده وأكثر، فعندما عبر سيبيون الإفريقي إلى إفريقية، وكان ذلك في عام 204 ق.م.، اعترضه صدربعل جيسكو وصيفاقس مع قوة مشتركة قوامها ثمانين ألف جندي مشاة وأكثر من عشرة آلاف فارس، وجرت المفاوضات بين الطرفين على أن يتراجع سيبيون بقواته، ويسمحون له بالعبور نحو موريتانيا الطنجية، فأوهمهم أنه بصدد دراسة مقترحهم للموافقة عليه.

كان ذلك رأي ماسينيسا الذي طلب من القائد الروماني أن يماطلهم لكسب الوقت، وقام مع مجموعة من الفرسان بالتقدم نحو المعسكر المعادي ثم عمد إلى إشعال النار في الإسطبلات ومستودعات العلف، فهلك نتيجة لذلك من القرطاجيين والنوميديين أكثر من أربعين ألف رجل، قاموا بشيهم جميعا في النار.

هكذا كانت تطبخ الأحقاد وتزرع الدسائس بين أهل البيت الواحد، وعندما كان سيبيون إيمليانوس يفرك يديه فرحا وغبطة بهذا النصر المبين، كان ماسينيسا يتقافز من الغضب والتوتر، فلم يشف غليله بعد ممن اعتبرهم أهانوا شرفه واعتدوا على ملكه، فيما كان الملك الآخر صيفاقس يلعن روما وأصول الرومان جميعا.

استمرت المعارك طاحنة شرسة بين الطرفين، ولما رأى صدربعل جيسكو عبث المقاومة في نوميديا الغربية، اجتمع مع صهره الملك صيفاقس، وكان عابسا غاضبا شديد التوتر، حاول صيفاقس تهدئة مخاوف صدربعل، فانفجر هذا غاضبا وقال: إن جيشك لا يحارب أيها الملك، إنهم يلعبون ويلهون بالسيوف فقط.

امتعض صيفاقس لهذه التهم الخطيرة التي تنال من هيبته، فقال وهو يفرك يديه بعصبية: بل إن قواتك قد أصيبت بالارهاق والتعب، إنك أيها القائد العزيز تنسى أن هذا الجيش قضى سنوات طويلة في القتال، ثم نأتي نحن لنحملهم المسؤولية.

ضرب صدربعل فخذه بيده محتجا، وقال وهو يستعد لمغادرة القاعة: لو أنك تهتم بجنودك وتترك أمر فرساني فذلك أفضل.

نفذ صبر صيفاقس، فقال باستخفاف: وهل تسمي هؤلاء الأجراء فرسانا، إن جندكم يقاتلون لأنهم يتقاضون المال، ولا يهمهم كثيرا من ينتصر في النهاية.

قال: جلالتكم قد تجاوزتم حدودكم، فاسمح لي بالمغادرة. قال صيفاقس وهو يرمي بكأس كان بيده: يمكنك الانسحاب نحو قرطاج فذلك خير لكم، ثم إن المرتزقة ليس لهم أي وطن يدافعون عنه.

كانت تلك الجملة كافية، لكي يغادر صدربعل جيسكو سيغا ويتوجه بحرا إلى قرطاجنة، وقد كان يشعر في قرارة نفسه أن صهره صيفاقس على حق، فمعظم الفرسان الذين يقاتلون معه هم من المرتزقة الذين أغراهم هانيبعل بالمال، لكي يساعدوه في الوصول إلى روما، أما وقد أصبحت روما أضغاث أحلام، والخطر اليوم يهدد مدينته وبلده، فعليه أن يسارع بالعودة إليها، وبإمكان صيفاقس تدبر أمره.

أما في المعسكر الآخر، فكانت الأمور على أحسن ما يرام بين الحليفين، اللذين جمعهما العداء والحقد فقط، فكان الأول راغباً في تحطيم هانيبعل الذي يقدره ويخشاه، وثانيهما ماسينيسا الحاقد على صيفاقس من أجل حبه وأمه من بعدها.

تمتنت العلاقة بين الملك الشاب ماسينيسا وشقيق القائد العام الروماني لاليوس كايوس، وقامت بينهما صداقة كان من نتائجها أن اقترح لاليوس على الملك أن يتزوج حسناء رومانية، فيضمن بذلك مستقبل علاقاته مع روما.

هز ماسينيسا رأسه كمن يقول، سوف أرى، ثم قال بصوت خافت: إنه عرض يستحق النظر، ولكن أين هي تلك الحسناء التي تسلب اللب والقلب.

قال لاليوس: موجودة هي يا صديقي الملك العزيز، لو أنك رأيت شقيقتي أو بنات عمي لأقسمت أن في روما نسوة لا مثيل لهن على الأرض.

كانت ابتسامة حزينة قد ارتسمت على محيا ماسينيسا، وقد طاف في خياله وجه صوفونيسبا

وضحكاتها وابتساماتها، وكان قلبه يقول له، انظر إلى هذا الروماني الغبي كيف يدعي ويتبجح؟.. يقولون لا مثيل للرومانيات على الأرض، يبدو أن هؤلاء الرجال لم يعرفوا حقيقة الجمال بعد، لاحظ لاليوس ذلك، فاعتذر إن تسبب بأي ألم لصديقه الملك، فقال ماسينيسا: لا عليك فقط إن عرضك يستحق كل العناية، والآن أخبرني، هل سنهاجم معسكرات سيغا ونسحقها؟. قال: بالتأكيد لقد طلب مني القائد سيبيون المبجل مناقشة هذا الموضوع معكم.

قال وهو يبتسم بفرح: لدي خطة سوف تؤتي أكلها، وتمكننا من حسم المعركة مع هذا الملك الوغد.

اتفق سيبيون مع ماسينيسا على أن يذهب شقيقه لاليوس إلى صيفاقس لكي يفاوضه على تحقيق هدنة ثانية بين قواتهما، في حين أن عليه أن يكتشف جميع نقاط ضعف القوات النوميدية، وخاصة المعسكرات التي يتحصن فيها جيش صيفاقس، فهي الخدعة إذن، فكل همه أن يتعرف على إمكانيات عدوه، لكي ينال منه بسرعة وبأقل عدد من الخسائر، كما أرسل معه ضباطا

متخفيين في ثياب عبيد حتى لا يشك فيهما، لكن الملك صيفاقس كان حذرا من هذا الرسول، فحاول جهده أن يبعد لاليوس ورفاقه عن تحصينات معسكره فأوعز لاليوس إلى رجاله بوخز الخيل التي معهم كما لو كانت حشرة لدغتهم.

فانطلقت الخيول جامحة مضطربة، فراح رفاق لاليوس يطاردونها بطريقة طافوا معها في أرجاء المعسكر، وتعرفوا على نقاط الضعف والقوة، وفشلت مفاوضات الهدنة، فهاجم سيبيون المدينة وأشعل في تحصيناتها النيران، وأرغم صيفاقس على الصلح.

طلب القائد العام سيبيون من الملك ماسينيسا أن يعطيه الأولوية في قتال صيفاقس، وقد صنع ذلك لمعرفته أن ماسينيسا قد يدمر كل شيء إن هو تمكن من خصمه، فقام القائد كايوس لايليوس بالهجوم على قصر صيفاقس، حتى تمكن منه، فاقتاده أسيرا دون علم ماسينيسا ولكن بمساعدته.

توجهوا بالملك الأسير نحو موريتانيا الطنجية، ثم أعطوا الحكم من بعده لابنه فيرمينا الذي يعد آخر ملك

مازوليسي قبل أن توحد مملكة نوميديا من قبل ماسينيسا.

عندما كان هانيبعل يشرب السم هناك بعيدا في سوريا، بعد نفيه وعدم احتماله آلام البعد والهزيمة، كان صيفاقس هو الآخر يركب في سفينة الأسر، متجها نحو روما التي يغريها كثيرا رؤية الملوك النوميديين وهم مكبلون بالأغلال، أو يقفون وراء قضبان الأقفاص كالقردة المريضة المعدة للإعدام.

أي سر غامض تحمله روما نحو الضفة الجنوبية للبحر، حتى كتب في صحيفة القدر أن يقتل جل ملوك نوميديا المخلصين على يد الرومان وفي روما نفسها؟.

لا شك أن مجلس شيوخ روما كان سعيدا مغتبطا ينتظر وصول السفينة أندورا التي تحمل الملك الذي حدثته خيالاته المريضة أن يقاتل أبناء روميلوس الذي رضع الذئبة فأخذ منها كثيرا من صفاتها.

كان الملك المكبل صيفاقس يفكر ساعتها في تلك الأسطورة، فقال وهو يدوس بقدمه على تراب روما: إنها ليست أسطورة بل هي الحقيقة، كان ينظر إلى وجوه

الرومان المستبشرين بقدوم أسيرهم، الفرحين بصيدهم الثمين، فتخيلهم جميعا كجراء الذئاب يتصارعون على ثدي الذئبة الأم.

رفع رأسه إلى السماء وقال: رحماك أيتها السماء العظيمة، هل كتب علي أن أموت بين هؤلاء الهجناء، أو أن أقتل بيد همجي روماني لم يتخلص بعد من رائحة الوحوش.

اطلبوها من الناشر

أحمد باي

الكاهنة

تاكفاريناس

تينهنان

الملك شوشناق

الملك صيفاقس

الملك ماسينيسا

يوغرطة

أن تقرأ التاريخ كأنك تراه وتسمعه، أفضل بكثير من قراءته السردية الجافة، أن تعيش أحداثه وحكاياته سوف تتملكك عندها المتعة وحب المعرفة، ويأخذ الفضول بتلابيب عقلك، وغير ذلك قد ينفرك ويجعل من متعة المطالعة مجرد درس تكرهه، "روايات تاريخ الجزائر" تحمل معنى رئيسيا، وهو أن تقرأ التاريخ كأنك أحد صناعه والفاعلين فيه، تطالعه رواية شيقة وليس مجرد أحداث وتواريخ تدفعك للسأم.

الناشر

الايداع القانوني 2014-4903



منشورات الانيس
تعاونية العلم رقم 17 جنان عشابو - دالي ابراهيم - الجزائر
الهاتف : 58 02 29 023 الفاكس : 57 02 29 023
النقال : 84 08 57 0661 / 48 05 54 0661
elanisedition s@hotmail.fr

توزيع : دور المعارف
0560 64 30 67